رفاعة الطهطاوى

إعداد

صلاح عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

51 ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب :رفاعة الطهطاوى
(شخصيات مصرية)
المؤلـــف : صلاح عبد الحميد
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرىبرنت-
رقم الإيداع : 3235 / 2015
طبعة ثانية : 2015

فهرسة أثناء النشر

صلاح عبدالحميد ،

رفاعة الطهطاوى(شخصيات مصرية) / صلاح عبد الحميد – القاهرة .- ط1
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
80 ص ؛ 24 سم
تدمك :-8-53-6169-977
1 – الرجال – تراجم
2-النساء - تراجم
أ. العنوان 70و920

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ

إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الماضي لا يماثل المستقبل ، الماضي شيء ، والمستقبل شيء آخر ، الماضي انتهى ، والمستقبل جاهز للتفصيل حسب المقاس الذي ترغبه "

أنتوني روبنز

مصر بلدنا الحبيب ستظل فى قلب شعبك مهما كانت الظروف , سنظل نكافح من أجل أن نرفع أسمك علياً فى الأفاق , مر عليك شخصيات كثيرة أثبتوا لكي يا حبيبتي كم ضحوا من أجلك ، كم كانوا يزرعون الخير والحب والخير والنماء .

على ضفافك تعلمنا الكثير رأينا كم أنتي عظيمة بأرضك وخصوبتك مهما أختلف الزمان ، وجاء الوقت اليوم لنتسلم الراية من شخصيات أثرت وعمروا لنحافظ عليكى ونكمل المسيرة من أجل شئ واحد ألا و هو أنتي

الشخصيات المصرية والنوابغ التى أخرجتها مصر .. أكثر من أن تحصي .. وأكبر من أن تقدرها الرواية .. فعلى مدى العصور السالفة .. نبغ بمصر عشرات العلماء والأدباء والسياسيين والمفكرين والكتاب .. حتى فى مجال الأمن .. خرجت منها أساطير حفرت سجلا من ذهب فى ميادين القتال .. فى الحروب الساخنة .. والباردة على حد سواء ..

وان كنت أكتب عن بعض هذه الشخصيات ، فليس هذا حصرا لهم .. فهم أكثر من ذلك ..وليس هذا برد لما بسطوه من أعمالهم .. فهم أكبر من هذا أيضا .. هم بعض الشخصيات ذات الأثر غير العادي على مصر والبلاد العربية بل والعالم أجمعه .. وفيما أعتزمه من طرح لهذه الشخصيات الشهيرة التى يدرك مجال نبوغها القلائل، تلك الشخصيات التى اكتسبت الشهرة .. وأتمنى أن تغفروا مسبقا أي تقصير تلمحونه فى هذه الدراسة التى أكتبها لكم كخاطرة وحديث سامر فى ليالي الأدب ..

المؤلف

الطهطاوي بين الأزهر وباريس

النشأة والتكوين الثقافي:

رفاعة رافع الطهطاوي1873 - 1801 من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا. وُلد رفاعة رافع الطهطاوي في 15 أكتوبر1801 ، بمدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر، ونشأ في أسرة كريمة الأصل شريفة النسب، فأبوه ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلي، ينتهي نسبها إلى قبيلة الخزرج الأنصارية.

لقي رفاعة عناية من أبيه، فحفظ القرآن الكريم، وبعد وفاة والده رجع إلى موطنه طهطا، ووجد من أخواله اهتماماً كبيراً حيث كانت زاخرة بالشيوخ والعلماء فحفظ على أيديهم المتون التي كانت متداولة في هذا العصر، وقرأ عليهم شيئا من الفقه والنحو. التحق رفاعة وهو في السادسة عشرة من عمره بالأزهر في عام 1817وشملت دراسته في الأزهر الحديث والفقه والتفسير والنحو والصرف.. وغير ذلك.

ولما بلغ رفاعة السادسة عشرة من عمره التحق بالأزهر وذلك في سنة (1232 هـ= 1817م)، مسلحا بما سبق أن تعلمه على يد أخواله، الأمر الذي ساعده على مواصلة الدراسة مع زملائه الذين سبقوه في الالتحاق بالأزهر. وشملت دراسته في الأزهر الحديث والفقه والتصوف والتفسير والنحو والصرف... وغير ذلك. وتتلمذ عل يد عدد من علماء الأزهر العظام، وكان من بينهم من تولى مشيخة الجامع الأزهر، مثل الشيخ حسن القويسني، وإبراهيم البيجوري، وحسن العطار، وكان هذا الأخير ممن وثق الطهطاوي صلته بهم ولازمهم وتأثر بهم. وتميز الشيخ العطار عن أقرانه من علماء عصره بالنظر في العلوم الأخرى غير الشرعية واللغوية، كالتاريخ والجغرافيا والطب، واستفاد من رحلاته الكثيرة واتصاله بعلماء الحملة الفرنسية.

وبعد أن أمضى رفاعة في الأزهر ست سنوات، جلس للتدريس فيه سنة (1237 هـ = 1821 م) وهو في الحادية والعشرين من عمره، والتف حوله الطلبة يتلقون عنه علوم المنطق والحديث والبلاغة والعروض. وكانت له طريقة آسرة في الشرح جعلت الطلبة يتعلقون به ويقبلون على درسه، ثم ترك التدريس بعد عامين والتحق بالجيش المصري النظامي الذي أنشأه محمد علي إماما وواعظا لإحدى فرقه، واستفاد من هذه الفترة الدقة والنظام.

سفره إلى فرنسا

وفي سنة (1324هـ= 1826م) قررت الحكومة المصرية إيفاد بعثة علمية كبيرة إلى فرنسا لدراسة العلوم والمعارف الإنسانية، في الإدارة والهندسة الحربية، والكيمياء، والطب البشري والبيطري، وعلوم البحرية، والزراعة والعمارة والمعادن والتاريخ الطبيعي. وبالإضافة إلى هذه التخصصات يدرسون جميعا اللغة والحساب والرسم والتاريخ والجغرافيا.وتنوع تخصصات هذه البعثة يشير إلى عزم الوالي محمد علي النهوض بمصر والدفع بها إلى مصاف الدول المتقدمة، والوقوف على الحضارة الأوروبية الحديثة.

وحرصا على أعضاء البعثة من الذوبان في المجتمع الغربي قرر محمد علي أن يصحبهم ثلاثة من علماء الأزهر الشريف لإمامتهم في الصلاة ووعظهم وإرشادهم. وكان رفاعة الطهطاوي واحدا من هؤلاء الثلاثة، ورشحه لذلك شيخه حسن العطار.

وما إن تحركت السفينة التي تحمل أعضاء البعثة حتى بدأ الطهطاوي في تعلم الفرنسية في جدية ظاهرة، وكأنه يعد نفسه ليكون ضمن أعضاء البعثة لا أن يكون مرشدها وإمامها فحسب، ثم استكمل تعلم الفرنسية بعدما نزلت البعثة باريس؛ حيث استأجر لنفسه معلما خاصا يعطيه دروسا في الفرنسية نظير بضعة فرنكات كان يستقطعها من مصروفه الشخصي الذي كانت تقدمه له إدارة البعثة، وأخذ يشتري كتبا خاصة إضافية غير مدرجة في البرنامج الدراسي،

وانهمك في قراءتها. ومن شدة حرصه على مداومة القراءة والدرس تأثرت عينه اليسرى، ونصحه الطبيب بعدم الاطلاع ليلاً، لكنه لم يستجب لنصحه، واستمر في إشباع نهمه للمعرفة.

وأمام هذه الرغبة الجامحة في التعلم قررت الحكومة المصرية ضم رفاعة إلى بعثتها التعليمية، وأن يتخصص في الترجمة؛ لتفوقه على زملائه في اللغة العربية والثقافة الأزهرية. وقد لقي الفتى النابه عناية ظاهرة من العالم الفرنسي جومار الذي عهد إليه محمد علي بالإشراف العلمي على البعثة، ومن المستشرق الفرنسي الكبير دي ساسي، واجتاز كل الامتحانات التي عقدت له بنجاح باهر، وكانت التقارير التي ترسل إلى محمد علي تتابع أخبار البعثة تخص رفاعة بالثناء والتقدير.

وقبل أن يتقدم رفاعة للامتحان النهائي كان قد أنجز ترجمة اثني عشر عملاً إلى العربية في التاريخ والجغرافيا والهندسة والصحة، بالإضافة إلى مخطوطة كتابه" تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وهو الكتاب الذي ارتبط اسمه به، ووصف فيه الحياة في باريس وعادات أهلها وأخلاقهم، وهو ليس وصفًا لرحلة أو تعريفًا لأمة بقدر ما هو دعوة للارتقاء، وصرخة للبعث والنهوض .

يبدأ المنعطفُ الكبير في سيرة رفاعي الطهطاوى مع سفره سنة1242 هـ1826= م إلى فرنسا ضمن بعثة عددها اربعين طالب أرسلها محمد على على متن السفينة الحربية الفرنسية (لاترويت) لدراسة العلوم الحديثة.

وكان الشيخ حسن العطّار وراء ترشيح رفاعة للسفر مع البعثة كإمام لها وواعظٍ لطلابها، وذهب كإمام ولكنه إلى جانب كونه إمام الجيش اجتهد ودرس اللغة الفرنسية هناك وبدأ بممارسة علم، وبعد خمسٍ سنوات حافلة أدى رفاعة امتحان الترجمة، وقدَّم مخطوطة كتابه الذي نال بعد ذلك شهرة واسعة تَخْلِيصُ الإِبْرِيزِ في تَلْخِيصِ بَارِيز

ميدان التعليم:

عاد الطهطاوي إلى مصر سنة (1247هـ = 1831م) تسبقه تقارير أساتذته التي تشيد بنبوغه وذكائه، وكان إبراهيم باشا ابن محمد علي أول من استقبله من الأمراء في الإسكندرية، ثم حظي بمقابلة الوالي محمد علي في القاهرة.

وكانت أولى الوظائف التي تولاها رفاعة بعد عودته العمل مترجما في مدرسة الطب، وهو أول مصري يشغل هذه الوظيفة، ومكث بها عامين، ترجم خلالهما بعض الرسائل الطبية الصغيرة، وراجع ترجمة بعض الكتب، ثم نقل سنة (1349هـ= 1833م) إلى مدرسة الطوبجية (المدفعية) لكي يعمل مترجما للعلوم الهندسية والفنون العسكرية.

ولما اجتاح وباء الطاعون القاهرة سنة (1250هـ = 1834م) غادرها إلى طهطا، ومكث هناك ستة أشهر، ترجم في شهرين مجلداً من كتاب بلطبرون في الجغرافيا، وعندما عاد إلى القاهرة قدم ترجمته إلى محمد علي، فكافأه مكافأة مالية.

مدرسة الألسن

كان رفاعة الطهطاوي يأمل في إنشاء مدرسة عليا لتعليم اللغات الأجنبية، وإعداد طبقة من المترجمين المجيدين يقومون بترجمة ما تنتفع به الدولة من كتب الغرب، وتقدم باقتراحه إلى محمد علي ونجح في إقناعه بإنشاء مدرسة للمترجمين عرفت بمدرسة الألسن، مدة الدراسة بها خمس سنوات، قد تزاد إلى ست. وافتتحت المدرسة بالقاهرة سنة (1251هـ = 1835م)، وتولى رفاعة الطهطاوي نظارتها، وكانت تضم في أول أمرها فصولاً لتدريس اللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والفارسية، إلى جانب الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية.

وقد بذل رفاعة جهدا عظيما في إدارته للمدرسة، وكان يعمل فيها عمل أصحاب الرسالات ولا يتقيد بالمواعيد المحددة للدراسة، وربما استمر في درسه ثلاث ساعات أو أربعا دون توقف واقفًا على قدميه دون ملل أو تعب يشرح لهم الأدب والشرائع الإسلامية والغربية. وقد تخرجت الدفعة الأولى في المدرسة سنة (1255هـ1839 = م) وكان عددها عشرين خريجا، وكانت مترجمات هؤلاء الخريجين قد طبعت أو في طريقها إلى الطبع.

وقد اتسعت مدرسة الألسن، فضمت قسما لدراسة الإدارة الملكية العمومية سنة 1261)هـ=1844 م)، لإعداد الموظفين اللازمين للعمل بالإدارة الحكومية، وقسما آخر لدراسة الإدارة الزراعية الخصوصية بعد ذلك بعامين، كما ضمت قسما أنشئ سنة (1263هـ = 1847م) لدراسة الشريعة الإسلامية على مذهب أبي حنيفة النعمان لإعداد القضاة، وأصبحت بذلك مدرسة الألسن أشبه ما تكون بجامعة تضم كليات الآداب والحقوق والتجارة.

وكان رفاعة الطهطاوي يقوم إلى جانب إدارته الفنية للمدرسة باختيار الكتب التي يترجمها تلاميذ المدرسة، ومراجعتها وإصلاح ترجمتها .

وأفتتح سنة1251 هـ1835 / م مدرسة الترجمة، التي صارت فيما بعد مدرسة الألسن وعُيّن مديراً لها إلى جانب عمله مدرساً بها، وفى هذه الفترة تجلى المشروع الثقافى الكبير لرفاعة الطهطاوى ووضع الأساس لحركة النهضة التي صارت في يومنا هذا، بعد عشرات السنين إشكالاً نصوغه ونختلف حوله يسمى الأصالة أم المعاصرة ك ان رفاعة أصيلاً ومعاصراً من دون إشكال ولا اختلاف، ففى الوقت الذي ترجم فيه متون الفلسفة والتاريخ الغربي ونصوص العلم الأوروبى المتقدّم نراه يبدأ في جمع الآثار المصرية القديمة ويستصدر أمراً لصيانتها ومنعها من التهريب والضياع.

وظل جهد رفاعة يتنامى بين ترجمةً وتخطيطاً وإشرافاً على التعليم والصحافة، فأنشأ أقساماً متخصّصة للترجمة) الرياضيات - الطبيعيات - الإنسانيات (وأنشأ مدرسة المحاسبة لدراسة الاقتصاد ومدرسة الإدارة لدراسة العلوم السياسية.

وكانت ضمن مفاخره استصدار قرار تدريس العلوم والمعارف باللغة العربية(وهي العلوم والمعارف التي تدرَّس اليوم في بلادنا باللغات الأجنبية) وإصدار جريدة الوقائع المصرية بالعربية بدلاً من التركية ، هذا إلى جانب عشرين كتاباً من ترجمته، وعشرات غيرها أشرف على ترجمتها.

إغلاق ونفي:

ظلت المدرسة خمسة عشر عاما، كانت خلالها مشعلاً للعلم، ومنارة للمعرفة، ومكاناً لالتقاء الثقافتين العربية والغربية، إلى أن عصفت بها يد الحاكم الجديد عباس الأول، فقام بإغلاقها لعدم رضاه عن سياسة جده محمد علي وعمه إبراهيم باشا وذلك في سنة (1265هـ = 1849م)، كما أمر بإرسال رفاعة إلى السودان بحجة توليه نظارة مدرسة ابتدائية يقوم بإنشائها هناك، فتلقى رفاعة الأمر بجلد وصبر، وذهب إلى هناك، وظل هناك فترة دون عمل استغلها في ترجمة رواية فرنسية شهيرة بعنوان "مغامرات تلماك"، ثم قام بإنشاء المدرسة الابتدائية، وكان عدد المنتظمين بها نحو أربعين تلميذًا، ولم يستنكف المربي الكبير أن يدير هذه المدرسة الصغيرة، ويتعهد نجباء ها برعاية خاصة.

وهكذا عَبَس وجه الثقافة، وعُوِّقَ رفاعة عن مشروعه النهضوى الكبير، بيد أن رفاعة لم يعبس ولم يعاق، فواصل المشروع في منفاه، فترجم هناك مسرحية تليماك لفنلون، وجاهد للرجوع إلى الوطن وهو ا لأمر الذي تيسَّر بعد موت الخديوى عباس وولاية سعيد باشا، وكانت أربعة أعوام من النَّفْى قد مرَّت.

عود حميد:

وبعد وفاة عباس الأول سنة (1270هـ= 1854 م) عاد الطهطاوي إلى القاهرة، وأسندت إليه في عهد الوالي الجديد "سعيد باشا" عدة مناصب تربوية، فتولى نظارة المدرسة الحربية التي أنشأها سعيد لتخريج ضباط أركان حرب الجيش سنة (1277هـ1856 = م)، وقد عنى بها الطهطاوي عناية خاصة، وجعل دراسة اللغة العربية بها إجبارية على جميع الطلبة، وأعطى لهم حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين :التركية أو الفارسية، وإحدى اللغات الأوربية: الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، ثم أنشأ بها فرقة خاصة لدراسة المحاسبة، وقلما للترجمة برئاسة تلميذه وكاتب سيرته صالح مجدي، وأصبحت المدرسة الحربية قريبة الشبه بما كانت عليه مدرسة الألسن.

عاد رفاعة بأنشط مما كان، فأنشأ مكاتب محو الأمية لنشر العلم بين الناس وعاود عمله في الترجمة (المعاصرة) ودفع مطبعة بولاق لنشر أمهات كتب التراث العربى (الأصالة).

قضى رفاعة فترةً حافلة أخرى من العمل الجامع بين الأصالة والمعاصرة حتى انتكس سعيد فأغلق المدارس وفصل رفاعة عن عمله سنة1278 هـ.1861 /

مع التراث

ولم يكتف رفاعة بهذه الأعمال العظيمة، فسعى إلى إنجاز أول مشروع لإحياء التراث العربي الإسلامي، ونجح في إقناع الحكومة بطبع عدة كتب من عيون التراث العربي على نفقتها، مثل تفسير القرآن للفخر الرازي المعروف بمفاتيح الغيب، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص في البلاغة، وخزانة الأدب للبغدادي، ومقامات الحريري، وغير ذلك من الكتب التي كانت نادرة الوجود في ذلك الوقت.

غير أن هذا النشاط الدءوب تعرض للتوقف سنة (1277هـ = 1861م) حيث خرج رفاعة من الخدمة، وألغيت مدرسة أركان الحرب، وظل عاطلاً عن العمل حتى تولى الخديوي إسماعيل الحكم سنة (1279هـ = 1863م)، فعاد رفاعة إلى ما كان عليه من عمل ونشاط على الرغم من تقدمه في السن، واقتحم مجالات التربية والتعليم بروح وثابة يحاول أن يأخذ بيد أمته إلى مدارج الرقي والتقدم، فأشرف على تدريس اللغة العربية بالمدارس، واختيار مدرسيها وتوجيههم، والكتب الدراسية المقررة، ورئاسة كثير من لجان امتحانات المدارس الأجنبية والمصرية.

قلم الترجمة

ومن أبرز الأعمال التي قام بها رفاعة في عهد الخديو إسماعيل نظارته لقلم الترجمة الذي أنشئ سنة (1280هـ = 1863م) لترجمة القوانين الفرنسية، ولم يكن هناك من أساطين المترجمين سوى تلاميذ الطهطاوي من خريجي مدرسة الألسن، فاستعان بهم في قلم الترجمة، ومن هؤلاء: عبد الله السيد وصالح مجدي ومحمد قدري.وكان مقر قلم الترجمة حجرة واحدة بديوان المدارس، ولم يحل ذلك دون إنجاز أعظم الأعمال، فترجموا القانون الفرنسي في عدة مجلدات وطبع في مطبعة بولاق، ولم تكن هذه المهمة يسيرة، إذ كانت تتطلب إلماما واسعا بالقوانين الفرنسية وبأحكام الشريعة الإسلامية، لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي

روضة المدارس

حين عهد إلى الطهطاوي إصدار مجلة روضة المدارس، سنة (1287هـ = 1870م) جعل منها منارة لتعليم الأمة ونشر الثقافة بين أبنائها، فقد نظمها أقساما، وجعل على رأس كل قسم واحداً من كبار العلماء من أمثال عبد الله فكري الأديب الكبير، وإسماعيل الفلكي العالم الرياضي والفلكي، ومحمد باشا قدري القانوني الضليع، وصالح مجدي، والشيخ حسونة النواوي الفقيه الحنفي المعروف، وغيرهم .وكانت المجلة تنشر مقالات تاريخية وجغرافية واجتماعية وصحية وأدبية وقصصا وأشعارا، كما كانت تنشر ملخصا لكثير من الدروس التي كانت تلقى بمدرسة "دار العلوم."

واعتادت المجلة أن تلحق بأعدادها كتبا ألفت لها على أجزاء توزع مع كل عدد من أعدادها بحيث تـ كون في النهاية كتاباَ مستقلاً، فنشرت كتاب "آثار الأفكار ومنثور الأزهار" لعبد الله فكري، و"حقائق الأخبار في أوصاف البحار" لعلي مبارك، و"الصحة التامة والمنحة العامة" للدكتور محمد بدر، و"القول السديد في الاجتهاد والتجديد" للطهطاوي.

يقضى العقد الأخير من عمره الحافل في نشاط مفعم بالأمل، فيشرف مرة أخرى وأخيرة على مكاتب التعليم، ويرأس إدارة الترجمة، ويصدر أول مجلة ثقافية في تاريخنا روَضَةُ المدارِس، ويكتب في التاريخ (أَنْوارُ تَوْفِيقِ الجَلِيل فى أَخْبَارِ مصْرَ وتوْثِيقِ بنى إِسْمَاعيل)، وفى التربية والتعليم والتنشئة (مباهِجُ الأَلْبَابِ المصْرِيَّة فِى مناهِجِ الآدابِ العصْرِيَّة)، (المُرْشِدُ الأَمِينِ للبنَاتِ والبنَينِ)، وفى السيرة النبوية) نهَايَةُ الإِيجازِ فِى تَارِيخِ سَاكِنِ الحجَازِ)ومن مؤلفاته أيضاً) القول السديد في الاجتهاد والتجديد) و(تعريب القانون المدنى الفرنساوى)و(مغامرات تليماك)و(قلائد المفاخر)و(المعادن النافعة)و الكثير من المؤلفات الأخرى.

وكان رفاعة قد نيف على السبعين حين ولي أمر مجلة الروضة، لكنه ظل مشتعل الذكاء وقاد الفكر، لم تنل الشيخوخة من عزيمته، فظل يكتب فيها مباحث ومقالات حتى توفي في (1 من ربيع الآخر 1290هـ = 27 من مايو 1873م.

أثر الترجمة في فكر رفاعة الطهطاوي

المرأة في تخليص الإبريز نموذجاً

أكثر الذين تعرضوا لكتب رفاعة بالدراسة وتعريف القراء بها، صنفوا كتابه)تخليص الإبريز في تلخيص باريز أو) الديوان النفيس بإيوان باريس (على أنه من .أوائل الكتب التي ألفها[1]

وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه لما اختير مبعوثًا إلى باريس أشار عليه شيخه حسن العطار أن ينبه على ما يقع في هذه السفرة وما يصادفه من الأمور العجيبة في تلك البقاع، ليكون كتابه هذا دلي ◌ لا يهتدي به إلى السفر طلاب الأسفار، خاصة وأن هذا الكتاب يعد الأول من نوعه الذي يتحدث عن تاريخ باريس، ثم يكمل رفاعة قائلا" :وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز ".

اتخذ رفاعة لنفسه خطة يسير عليها، فقد أخذ عهداَ على نفسه ألا يحيد في جميع ما يقوله عن طريق الحق، وألا يخالف نص الشريعة الإسلامية، وقد ذكر غرضه من الرحلة بأنه ليس مقتصرا على ذكر السفر ووقائعه، بل سيضيف إليه موجزاً عن العلوم والصنائع

مصر حجازي، فهمي محمود ..د دراسة وتعليق ،(الإبيز تخليص) لكتابه الكامل النص مع الطهطاوي عند الحديث العربي الفكر أصول [1] ١
١٤٢ ص ، ١٩٧٤ للكتاب، العامة المصرية .الهيئة

كما يراها الإفرنج، وقد وعد أن يكون تناول هذه الموضوعات سهلا حتى يمكن لكل الناس الاستفادة منه .

وهو يشيد بعد ذلك بتنبه محمد علي باشا إلى أهمية العلوم التي ستكون وسيلة لإعادة شباب مصر ومكانتها القديمة، وذلك عن طريق اللجوء إلى الاقتباس عن الإفرنج سواء باستقدامهم إلى بلاده والإغداق عليهم، أو إرسال البعثات المتتالية التي ستقوم بتحصيل العلوم والفنون ونشرها وتكثير تداولها وترجمة كتبها وطبعها .

وعلى الرغم مما كان يؤمله من فائدة لمصر نتيجة إرسال هذه البعثات، فإنه بدأ كتابه بوصف فرنسا على أنها ديار كفر وعناد، وبعيدة عنا غاية الابتعاد .

ويضيف بأن أهل باريس نصارى بالاسم، حيث لا يتخذون النصرانية دينًا لهم، ولا غيرة لهم عليها، ووصفهم بأنهم من الفرق التي تحسن وتقبح بالعقل .

ومع كل ما ذكره عن كفر الفرنسيين، وتخليهم عن نصرانيتهم، فإنه أبدى إعجابا منقطع النظير ببلادهم مستشهدًا برأي بعض الشعراء .

من لم ير الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا الناسا

مما سبق نلاحظ أن رفاعة استطاع أن يفرق في فرنسا بين كون أهلها كفارا أو غير متدينين، وبين كونها بلاد علم ومعرفة، وذلك لأن الإنسان في تلك البلاد يأمن على دينه، فلا ضرر في السفر لتحصيل العلوم والفنون .

ومن الواضح أنه رأى أن أفضل وسيلتين لاكتساب المعرفة والعلم من الإفرنج هما :" إرسال البعثات وترجمة كتبهم وطبعها، وقد رأى في الترجمة فناً مستقلا، وقد عرفه بقوله" :وهو من الفنون الصعبة، خصوصا ترجمة الكتب العلمية فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها، فهو عبارة عن معرفة لسان المترجم عنه وإليه وفن المترجم فيه ."

ومن الواضح أن الطهطاوي الذي تخصص بالترجمة يستطيع أن يفرق بدقة بين الترجمة والتأليف والتعريب، ولهذا يذكر في معرض حديثه عن حسن العطار المولع بالإطلاع على غرائب الآثار، أن أستاذه أوصاه أن يسجل ما يصادفه من الأمور الغريبة في هذه الرحلة، لتكون دليلاً لمن بعده من طلاب الأسفار، خصوصا وأنه لم يظهر باللغة العربية شيء في تاريخ باريس قبل كتابه .

وبإعادة قراءة العبارة السابقة يلاحظ أن رفاعة لم يذكر أنه ترجم ما جاء في كتاب التخليص عن الفرنسية، كما لم يذكر أنه قام بتأليفه؛ وهذا يعني أن الكتاب ليس ترجمة حرفية عن الفرنسية، وليس تأليفًا خالصا، وإنما لجأ إلى أسلوب جمع فيه بين الترجمة والتأليف والنقل، يقول في معرض حديثه عن الإسكندرية، حيث بدأ رحلته: " في ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية ."...

ولذلك أرى من المناسب أن يطلق على الطريقة التي اتبعها رفاعة عند وضع كتابه بأنها (توليف) أي أنه جمع بين الترجمة والتأليف والنقل، وهذا يدخل هذه الدراسة في إطار من أطر الترجمة الذي يتيح دراسة تأثيرها على الحوار بين الحضارات.

وحتى نستطيع أن نتبين أثر هذا الكتاب(تخليص الإبريز) في حوار الحضارات سيتوقف الباحث عند جزئية واحدة تناولها الكتاب في مواقف متناثرة على امتداد صحفاته، ويقصد بذلك (موضوع المرأة)، حيث سيحاول أن يرسم صورة المرأة كما رآها رفاعة، لتوضيح أثر الحضارة الغربية على موقفه منها،

ومن المعروف أن الإنسان الوافد الى بلد من البلدان، ربما كانت الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية هي أول ما يلفت انتباهه من مطعم وملبس، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة، فما هو الانطباع الأولي الذي كونه رفاعة عن هذه الجوانب؟ يقول" : " ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ...ونحو مائة كرسي للجلوس عليها

...ثم مدوا السفرة للفطور، ثم جاءوا بطبليات عالية، ثم رصوها من الصحون البيضاء .
وجعلوا قدام كل صحن قدحاَ من القزاز وسكيناً وشوكة وملعقة ...، ثم جاءوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيرا أو صحنين، ليغرف أحد أهل الطبلية، ويقسم على الجميع فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئاَ يقطعه بالسكين التي قدامه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينه أو يشرب في قدحه أبداَ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة " ...

وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ...فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة، ثم بعده باللحوم، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة كالخضروات ...ثم بالسلطة، ثم يختمون أكلهم بالفواكه، ثم بالشراب المخدر ...وهذا الأمر مطرد للغني والفقير كلٌّ على حسب حاله ...١٢

ولم يقف انبهار رفاعة عند حد الإعجاب بطريقة تناول الطعام وترتيبه على المائدة وأدواته، وإنما أبدى انبهاره كذلك بالأماكن العامة التي يقضي فيها الفرنسيون أوقات فراغهم، يقول :" كنا نخرج بعض ساعات للتسلي في البلد (مرسيليا) وندخل بعض القهاوي، والقهاوي عندهم ليست مجمعا للحرافيش بل هي مجمع لأرباب الحشمة ...فأول مرة خرجنا إلى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع ..والمشحونة بالنساء الجميلات

...وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه، والرأس، والنحر، وما تحته، والقفا، وما تحته، واليدين إلى قرب المنكبين، والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، وأما الأشغال فهي للرجال ...وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها ...والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة ..وقدامها دواة "...

على انه بعد انتقال رفاعة من مرسيليا وإقامته في باريس وتعرفه على الحياة الفرنسية بطريقة أوضح رأى أن الفرنسيين ينفقون أموالهم من أجل إشباع الشهوات واللهو، وهم في غاية الإسراف، وأضاف أن الرجال في فرنسا عبيد النساء "وتحت أمرهن سواء كان جميلات أم لا "...

وأضاف أن كثيرا من نسائهم يمتزن بقلة العفاف، كما أن الرجال في فرنسا لا يبدون الغيرة على نسائهم، كما يفعل المسلمون، وبعد ما ذكره رفاعة عن أخلاق الفرنساويات أضاف قائلاً :" ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظنّا سيئَا أصلاً مع أن هف واتهن كثيرة معهم "..

ومع كل ما ذكره من هفوات النساء الفرنسيات، فإنه أبدى إعجاباً شديدَا بجمالهن، يقول : " ونساء الفرنساويات بارعات الجمال واللطافة حسان المسامرة والملاحظة يتبرجن دائما بالزينة، ويختلطن مع الرجال في المتنزهات، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن، خصوصا يوم الأحد...

وليلة الاثنين في البالات والمراقص ...ومما قيل :إن باريس جنة النساء وأعراف الرجال ....وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته "..

ومن الأمور التي لفتت انتباه الطهطاوي في المرأة الفرنسية لطف ملابسها على الرغم مما فيها من خلاعة إلى جانب ما تتزين به من الحلي، وقد أطال في وصف ما ذكره بقوله :" وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذا تزين بأغلى ما عليهن، ولكن ليس لهن كثير من الحلي، فإن حليهن هو الحلق المذهب في آذانهن ...وعقد خفيف في أجيادهن ...ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير ...ولهن في البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ... ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رقيق فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً، ويبرز الردف كثيفاً... ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن، فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدي، حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعتهن ...ولكن لا يمكن لهن أبداَ كشف شيء من الرجلين، بل هن دائما لابسات للشرابات الساترة للساقين، وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة "...

آثرت أن أطيل في نقل هذا النص، ليتعرف القارئ على القيم الجمالية المادية عند المرأة الفرنسية، إذ من الواضح أنه لم يترك شأناً من شؤون المرأة المتعلقة بأزيائها ومظهرها إلا ووصفه، من الرأس إلى أخمص القدمين، فقد ذكر طريقة تصفيفها لشعرها، كما أشار إلى ساقيها اللذين تبدو عليهما النحافة، ومن الملاحظ كذلك أنه أجرى مقارنة في بعض الأمور بين المرأة الشرقية والفرنسية، فمثلا وجد أن الفرنسية لا تأبه كثيرا بالحلي ولا تضع الخلاخيل في ساقيها على العكس من المرأة الشرقية، كما أبدى إعجابه بضم المرأة الفرنسية شعرها في وسط رأسها، يقول :" ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان ألا يستحسنها منهن عدم إرخاء شعورهن، كعادة نساء العرب ."

وهذا يعني أن ذوق رفاعة الشرقي بدأ يتغير لصالح نموذج المرأة الغربية، ومما يزيد الأمر تأكيداً أنه أبدى ارتياحاً لما تبدو عليه المرأة الفرنسية من لطافة ناجمة عن خلاعة الملابس التي تختارها، وقد ازداد الأمر وضوحاً في حديثه عن الرقص، يقول: " ... أن الرقص عندهم فن من الفنون ...ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من التفاخر لا من الفسق، فلذلك كان دائما خارجاً عن قوانين الحياء بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء، لإنه لتهييج الشهوات، وأما في باريس فإنه نمط مخصوص، لا يشم منه رائحة العهر أبداً، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ...

وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان ...بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ....وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة، بأن يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معه، وأغلب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة فمس المرأة أياما كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء "...

وبإعادة قراءة هذا النص والنصوص السابقة المتعلقة بمواقفه من المرأة يحق لنا أن نطرح تساؤلا يتعلق بموقف رفاعة من تصرفات المرأة الفرنسية؟ وهل كان مؤيدا لسلوكها الذي وصفه سواء فيما يتعلق بنزولها إلى ميدان العمل أو باختيارها لملابسها وزينتها أو فيما يتعلق بتصرفها مع الرجل في حلبات الرقص؟

يلاحظ القارئ للفقرات العديدة التي اقتبست من كتابه (تخليص الإبريز) أنه يعتمد في إيراد مادة الكتاب على وصف دقيق لمشاهداته، فهو بهذه المثابة موضوعي، وربما يحاول أن يقنعنا بأنه حيادي، ولكن هناك مواقف تشي بتأثره بالنموذج الفرنسي المتعلق بشؤون المرأة وسأشير هنا إلى موقفين فقط :الأول يتعلق بإعجابه بملابس النساء على الرغم من كونها خليعة، وكذلك إعجابه بطريقة تصفيف شعورهن .ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل قارن بين طريقتهن وبين ما عليه النساء العربيات من إرخاء شعورهن، فخرج بنتيجة مفادها :" أن ما تفعله الفرنسيات بشعورهن خصال لا يمكن للإنسان إلا أن يستحسنها" .أما إرخاء الشعور عند النساء العربيات، فهي عادة غير مريحة.

أما الموقف الثاني فهو المتعلق بتفضيله الرقص الغربي المختلط الذي قد تكون فيه رقصة يمكن أثناءها للرجل أن يضع يده في خاصرة من يراقصها، ويسمح له بمس جسم المرأة في أي مكان من الجهة العليا من البدن دون حرج، هذا الرقص المختلط عده رفاعة رياضة وفنًا وفتوة بينما عد الرقص غير المختلط الذي تقوم به المرأة المصرية بعيدًا عن أعين الرجال وأمام النساء فقط شيئًا من الفجور وتهييجًا للشهوات.

كيف يستطيع الباحث أن يفسر رأي رفاعة فيما يتعلق بالرقص والملابس عند النساء الفرنسيات؟ هل هو ناجم عن الإعجاب بهذه القيم الجديدة فقط؟ أم أن الرجل صدر في هذا الموقف عن قناعة تامة بمبدأ الحرية التي نادت بها الثورة الفرنسية؟ أم أن ما حدث نوع من الافتتان بأنظمة الفرنسيين وطرائق حياتهم؟[1]

وهل كانت هذه المواقف ناجمة عن جسارة ورغبة في التغيير؟ وهل هي دعوة صريحة من شاب أزهري في مقتبل العمر إلى تقليد النموذج الفرنسي؟ [2]

ط١، 1979 . الإسلامي، المكتب بيروت، حسين، محمد محمد الغربية، والحضارة [1] الإسلام

٣٠ ع المعرفة، عالم سلسلة قرني، عزت الحديثة، العربية النهضة فجر في والحرية العدالة [2]

دَوْر رفاعَة الطهطاوي

في تطوير النثر العَربي الحَديث

النثر العربي قبل النهضة وقبل الطهطاوي:

قبل النهضة العربية الحديثة وقبل رفاعة الطهطاوي(1801 ـ 1873)، إمام نهضتنا وشيخها غير المنازع، وصل نثرنا العربي إلى مرحلة الاحتضار، إذ أصيب بوهن وسقم شديدين ، وبعقم خطير مستفحل في قالبه ومادته، بل لئن شئت الدقة أكثر فأكثر فقل إنه ابتلي بشلل تام دب في أوصاله، في أسلوبه وأفكاره ، شكله ومضمونه، إذ غرق الكاتب في التقليد والاجترار والتعقيد والإبهام والإغراب والتكلف والتنميق والتزيين، عباراتهم تتهالك وسخفاً، جملهم ركيكة، تراكيبهم واهنة، معانيهم غثة مرذولة، أفكارهم ضحلة تافهة، أساليبهم رثة مهلهلة، تقيدها المحسنات اللفظية وفنون البديع المتصيدة تصيداً عجيباً.

من كان منهم على حظ من الأدب أو يدعيه، كان غاية من تفتقت عنه عبقريته، أن يؤلف المقامات وليته يحسن صنعاً أو يتقن فناً، فما يأتي به لبراء من فن المقامة وما هو إلا تصحيف وتشويه لهذا الفن ولا يمت له ولا للأديب بعامة بأية صلة كانت لا من قريب ولا من بعيد، غاية ما فيه عبارات مغتصبة وأساليب مسروقة من الأولين، تبدو ظاهرة للعيان،

ومع التواء في العبارة وتكلف في السجع وحشد زاخر من المحسنات والبديع، يخاطبك الكاتب من وراء جدر سميكة وحجب صفيقة لا تستبين منها نفسيته ولا تتعرف أحاسيسه لأن القوالب محفوظة والجمل مرصوصة. ولئن حاول أحدهم نبذ التكلف والركاكة والخروج عن التنميق والتزيين، فليته لا يفعل ذلك، لأنه يقع في هوة سحيقة لا قرار لها، فيجد أن عباراته المسجعة بفنون البديع، أسلم وأقوى وأجمل صياغة من عباراته التي يزعمها مرسلة، إذ غلبت عليها التركية والعامية والأعجمية لا في ألفاظها وكلماتها فقط، وإلا لهان ذلك، بل في طريقة تأليف الجمل وتركيبها وصياغتها.

وللأسف فإن هذا العقم أو الشلل المستفحل الخطير، عم نثرنا العربي كله ففي مصر نقرأ نصاً من مقامة لواحد من عمد أدباء زمانه هو الشيخ مصطفى الدمياطي جاء فيه (هاجت لي دواعي الأشواق العذرية وعادت بي لواعج الأتواق الفكرية إلى ورود حمى مصر المعزية البديعة ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة، ونقرأ رثاء لهذا المتفاصح من الجبرتي، نجد فيه مصداقاً للقول القائل (إن الطيور على أشكالها تقع) فنثر الراثي كنثر المرثي في سقمه وضعفه وعقمه، قال الجبرتي (مات أفضل النبلاء وأنبل الفضلاء بلبل دوحة الفصاحة وغريدها، من انحازت له بدائعها طريفها وتليدها) من نجوم الأدب المتألقة المشعة في دمشق آنذاك الشيخ خليل الدمشقي ونقرأ له كنموذج مقطعاً من رسالة قال فيها :(أهدي السلام العاطر باكراه السحاب الماطر والتحايا المتارجة النفحات الساطعة اللمحات الشامخة الشميم الناشئة من خالص صميم) .

وهاك نصاً من العراق، لأديب بارز في هذا العصر هو أبو الشفاء الألوسي يصف فيه نساء الأستانة فيقول (وفيها من النسوان ما يخيل أنهن من حور الجنان وفيهن من عادات نساء الأ عراب أنهن يبرزن إلى الأزقة بمجرد نقاب وقد حققت أن منهن من لا تخرج من بيتها إلا إلى الحمام ولا يحوم عليها طائر نظر أهل الأزقة، نعم لا يخلو غيل من واوي رأى بلد طويل عريض ليس فيه كلب عاوى) إلى آخر ما في هذا الهراء من سفاسف منفرة تثير الضحك ملء الأشداق، وهاك رسالة من الحجاز بعث بها شريف مكة إلى المدير العام للحدود المصرية(وبعدما: وصل إلينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك فأوجب ذلك عندنا وافر السرور ومزيد الود والحبور)

من فلسطين العربية يطالعنا نص من تقرير رفعه أعيان نابلس ومنهم المفتي ورجل الدين والعلم والأدب، إلى إبراهيم باشا بن محمد علي سنة1840 يشكون فيه تصرف أحد ولاتهم (المعروض للأعتاب السنية السر عسكرية صانها رب البرية يعرض عبيدكم بخصوص أحمد آغا، حضر لعنده رجل يسمى علي مرعشلي من سباهية الاسلامبول وعند حضوره أظهر الأفراح بضرب الفتاش ببيته وضرب البارود فيه لـ يلاً ونهاراً، ومن كون ذلك مخالفاً للإرادة الشريفة وجب علينا تقديم الأعراض لأعتاب دولتكم لأجل يحيط العلم الشريف أن هذه الأمور ما أحد من أهالي نابلس داخلاً وخارجاً موافق المذكور)

وواضح أن هذا النص أو تلك النصوص منها النثر الديواني ومنها النثر الأدبي الفني ومنها ما يسير نهج السجع والبديع وفن المقامة ومنها ما يأخذ بنهج الترسل والبساطة المزعوم ولا أظن أني بحاجة لأدل القارئ الكريم على ما في هذه النصوص من ركاكة وإسفاف وتكلف ذميم وتزيين مقيت مرذول وتهافت بالعبارة وضحالة وتفاهة وسذاجة في الأفكار والمعاني واستعجام في الألفاظ عدا العامية الفاحشة، كما لست بحاجة لأدل القارئ على مواقع المحسنات اللفظية وفنون البديع التي جد أصحاب تلك النصوص بالتنقيب عنها.

أما عن عقم وجمود مضمون النثر العربي ومادته بهذه الفترة السوداء من تاريخ أدبنا العربي فحدث عنه ولا حرج، حيث أغرق الكتاب والمؤلفون أو على الأصح مدعو الكتابة والتأليف في وضع الشروح والحواشي والتقريرات والتلخيصات على المتون العقيم التي يطالعونها أو ينظمون منظومات العلوم أو المقامات المصحفة المشوهة الزيفاء أو الرسائل الأدبية التافهة الضحلة أو يؤلفون في اللغة والشريعة، ولئن حاول أحدهم أن يشذ عن أقرانه فيكتب بغير ذلك فيجد نفسه في هوة جديدة إذ تمتزج العلوم والمعارف التي يزعم ويدعي التأليف بها بالخرافات والأوهام والترهات الباطلة الفارغة، فالشرقاوي مثلاً حاول التأليف في التاريخ وليته ما حاول إذ مزج الحقائق التاريخية بالأساطير والخرافات الجوفاء وفسر التاريخ على منطق الجاهل الأرعن المتعفن بعقله وفكره المؤمن بالسحر والخوارق حيث ذكر في كتابه تحفة الناظرين أن أقصر الفراعنة عمراً عمَّر 200 سنة وأطولهم عمراً عمَّر 600 سنة وأن فرعون موسى كان قصير القامة طوله ستة أشبار وقيل أن طوله ذراعاً واحداً وطول لحيته سبعة أشبار وأنه حكم مصر 500 سنة

والمهم من كل هذا أن كل من ادعوا التأليف بهذه المرحلة وقبل النهضة وشيخها وإمامها الطهطاوي بل حتى بعض معاصريه أنفسهم، لم يخرجوا عن حيز التقليد والاجترار والأدب الضحل الغث الهابط في قالبه ومادته وعن الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو وعلومها ومزجوا العلوم الأخرى التي ادعوا أنهم يؤلفون بها بخرافات وسفاسف مرذولة وكأن لا معارف ولا علوم إلا معارف وعلوم السلف وكأن حياة الإنسان لا تستقيم ولا تقوم إلا بعلمي الشريعة واللغة وكأن الفكر الإنساني لا يحيا إلا بهذين وكان الأدب العربي لم يعرف غير المقامات والرسائل الأدبية والإخوانية العقيم وكأن العلوم ا لتي زعموا التأليف بها وليدة الأساطير والأوهام الفاسدة.

ويكفي دليل على عقم وسوء نثر هؤلاء الكتاب بمادته أو مضمونه أن يطالع المرء الكتب التي كانوا يطالعونها ويتزودون منها بزادهم الثقافي والفكري والعلمي، فواضح أن هذه المصنفات ليست إلا صورة باهتة مشوهة عن تراثنا العربي الأصيل إذ لا تعرض منه إلا جانباً مشوهاً من النحو والتفسير والفقه والحديث واللغة تلك العلوم التي اصطلحوا عليها بمصطلح المعقول والمنقول فكأن العرب لم يشغلوا أنفسهم إلا بهذه العلوم والمعارف العقيم وكان تراثنا الضخم لم ينجب ابن سلام وابن قتيبة والجاحظ والمعري وابن رشد والغزالي وابن خلدون وغيرهم وغيرهم من عمالقة الفكر العربي العظام.

وليت هذا فحسب بل إن هذه المتون أو الكتب العقيم كانت مقررة لتدرس للطلبة في أكبر دار علم في ا لشرق كله آنذاك، أي بالأزهر ولم يكن عالم الأزهر إلا الحافظ لتلك المعارف بشروحها وحواشيها أو من يضيف إليها الشروح والحواشي والتلخيصات والتقريرات الأخرى، لتبتلي بها المكتبة العربية أشر البلاء.

فإذا كانت تلك المتون والكتب الضحلة الغثة العقيمة هي الزاد الثقافي والفكري والعلمي الوحيد لطلبة وهو أ كبر منارة للعلم في الشرق كله، وهي المنهل الوحيد للمثقفين العرب، فما بالك بالمحصلة الفكرية والثقافية والعلمية التي سيخرج منها القارئون لتلك الكتب العقيمة وإن كان عالم الأزهر هو الحافظ لتلك المتون العارف بشروحها وحواشيها فما قولك ببقية الناس وماذا تتوقع بالتالي بعد هذا كله أن تكون مؤلفات زاعمي أو مدعي التأليف والبحث وهم لا يخرجون في ثقافاتهم وفكرهم وعلمهم عن تلك الكتب الغثة لابد أن ما سيطرحونه لنا سيكون أشد فقراً وغثاثة وعقماً وجموداً من الأصل المأخوذ عنه والمنهل منه.

الطهطاوى أبو الديمقراطية المصرية

كفاح الشعب المصرى فى سبيل الديمقراطية قديم وقد كان لمصر برلمان اسمه " البولا " قبل الفتح الرومانى وكا ن مقره مدينة الاسكندرية، وقد حاول المصريون استخلاصه من أباطرة الرومان ولكنهم عجزوا أنهم تمسكوا بمبادئ الحرية والمساواة غير أنهم فقدوا القدرة على التنظيم السياسى أو على الأصح أفقدهم إياها غزاتهم ، وبعد ألفى عام أو نحوها من الحكم الأوتوقراطى ، ظهر فيهم رفاعة رافع الطهطاوى لينادى بسيادة الشعب على الملوك وليفتح أعينهم على تجارب الأمم الأخرى فى ممارسة الحرية والمساواة من خلال الدساتير والنظم النيابية .

" سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم "

رفاعة الطهطاوى

" أما الشعب المصرى فلم يساهم قط فى شئ ما من التصميمات التى أقرها ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها بل ألقى فى طريقه كل ما استطاع أن يتنزه فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها وأقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه ولقد رأى محمد على عندئذ أنه لإيلاف ذلك الشعب وتعويده الأنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغى العمل لإزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله إلى التشبث والعناد".

" ولا يأخذن المصريون أحد بجريرة هذه النزعات ، فإن الروسيين لم يشدوا أزر بطرس الأكبر فيما تصدى لإجرائه من جلائل الأعمال وإدخال على شئونهم من نافع الإصلاحات . وتلك شنشنة معروفة عن الأمم فى أدوار وتنكسها ، كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العليا فى الحضارية والرفاهية تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت فى طريقه العقبات والمصاعب ".

" لم يذكر التاريخ مثلاً لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صلاح المدنية وإقامة معالمه وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازا بذاتية متينة وعبقرية عالية تدعوا إلى مشاركتهم فى عملهم أبناء وطنهم وكثيراً ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم إلى وسائل العنف والشدة وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على القطن الليب لإمكان تطبيق المنطق عليه ، فقد جبل الإنسان على أن لا يهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه ، وأن لا يـ تحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه ، ولما كانت الشعوب التى على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشئ من الحاجات عادة ، فإنها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها ولا يتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لإرادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعيناً فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها ، وإنما عبقرية الرجل العظيم فى تقديره أهميته ما يراه من الوسائل محققاً لمراده ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر " .

كلوت بك

هناك منهجان فى أصول الحكم للفكر البرجوازى الثورى ، كان من نقائض الحياة أن يكونا لمرتين من ثمار الثورة البرجوازية العظمى ألا وهى الثورة الفرنسية : المنهج الأول ، منهج رفاعة الطهطاوى وقد أدى إلى تعميق تيار الديمقراطية وتتويج الدساتير وانتصار الشعوب ، أما المنهج الثانى منهج كلوت بك ، وقد أدى إلى تعميق فكرة المستبد المستنير أو الدكتاتور المصلح ، الأول خرجت منه الملكيات المقيدة والنظم الجمهورية البرلمانية ونظرية فصل السلطات ومبدأ سيادة القانون ، والثانى خرجت منه الأنظمة الثورية الفردية والشمولية معاً وأنظمة الطغاة بالمعنى الإغريقى الأصلى القديم " للطاغية" بمعنى الدوتشى الإيطالى أو الفوهرر الألمانى أو الأب التركى كما كان " أتا تورك " يجب أن يسمى نفسه " أبا الأتراك " أو " الأخ الأكبر " كما كان فى كتابات جورج أورويل ، فالطاغية بالمعنى اليونانى القديم لم يكن معناه مجرد الحاكم المستبد ولكن " الملك المنتخب " ببيعة الجماهير لأنه أنقذ البلاد من شر ويل كما فعل أوديب بطيبة وأهلها فاعنوه "تيرانوس" أو ملكاً عليها .

والحق أن كلوت بك لم يكن يفكر فى الدفاع عن الحاكم المستبد من حيث هو حاكم مستبد فتاريخ فرنسا كتاريخ كل بلاد متحضرة عرف من الحكام المستبدين طائفة عظيمة ملأت بلاده جهلاً وظلماً وفاقة واضمحلال ، وإنما كان كلوت بك يفكر فى أصحاب الحكم المطلق من الملوك المستنيرين أو من زعماء الثورات التقدمية الذين غيروا معالم الحياة فى بلادهم وربما فى العالم أجمع بالعنف العنيف ، من الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ولويس الرابع عشر وبطرس الأكبر وهو لذلك يستدرك قائلاً :

" ولست أدعو أحداً إلى اعتبار والى مصر واحداً من رسل الحضارة والمدنية بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين وإنه مع كونه لم يعلم شيئاً من شئون الأمة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل ، قد سلكه مسلكاً مبنياً على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولاً ثم الاحتفاظ به بعد ذلك .

" وعلى أثر تنظيم الجيش والدونتمة (الأسطول) بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهد التعليم والمدارس العليا وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها إلى فريق من الفرنسيين ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى ما برحت تسوقها إلى الأمام حتى اليوم "

هذا الرأى الصريح من أكبر مـ دافع عن محمد على فى القرن التاسع عشر يوضح بجلاء رأى كلوت بك فى محمد على ، أن محمد على لم يكن رسولاً من الرسل فى الحضارة والعمران وإنما رجل سياسة وحرب استهدف الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها بدهاء السياسة وبقوة عسكرية وهما ما يسميه ميكافللى مكر الثعلب وقوة الأسد ويقول أنهما أخص صفات الأمير وإنما كان كل ما استحدثه محمد على فى مصر من أدوات الدولة الحديثة سواء فى باب التنظيم والإدارة فى باب العلوم والتكنولوجيا مجرد وسائل لخدمة مطامعه العسكرية .

إن أخر ما كان محمد على يفكر فيه هو بناء الإنسان على أرض مصر ومن أجل هذا ما أن دالت دولة محمد على حتى زال الصرح العمرانى الكبير الذى شيده على الرمال وغاصت مصر من جديد من ظلمات العصر الوسيط زمن عباس الأول وظلمات لم يخترقها إلا قبس من نور ذلك العقل الوضاء الذى اشتعل بلهب الحرية والتهب بحب الإنسان ، عقل رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسته .

لم يكن محمد على إذن حتى بمنطق كلوت بك وبنص مقاله ذلك المستبد المستنير شأن نابليون محطم أغلال الإقطاع ومنظم قوانين المجتمع المدنى الجديد ، القائم على قيم الثورة البرجوازية الكبرى ، بل كان أشبه شئ بمملوك عظيم خرج من إطاره وتجاوز حجمه الطبيعى ، بل وليس يجمعه ببطرس الأكبر أو أتاتورك أى أى مستبد مستنير رغم ذكائه العملى الشديد إلا صفة الاستبداد ، أما الاستنارة فلا ...

شهد رفاعة الطهطاوى أثناء إقامته فى باريس ثورة الشعب الفرنسى عام 1830 التى انتهت بعزل شارل العاشر أخر ملوك البوربون وتولية لويس فيليب ، دوق اورليان ملكاً على الفرنسيين وسجل وقائع هذه الثورة وأسبابها ونتائجها ، وكان أهم ما أبرزه منها فى كتابه " تلخيص الإبريز " هو ما أجرته ثورة 1830 من تعديلات على الدستور الفرنسى الرجعى ، دستور 1818 الذى وضعه لويس الثامن عشر بحيث صفته من كثير من مواده الرجعية

وجعلته أوفى بأسس الديمقراطية ، ولم يكتف رفاعة الطهطاوى بالرصد والتسجيل بل عمد إلى ترجمة نصوص دستور 1818 المعروف بالشرطة أو " الميثاق " ، وإلى ترجمة مواد الدستور الجديد ، دستور 1831 وإلى تحليل التعديلات التى أدخلت على الدستور القديم وشرح معانيها وأهدافها السياسية وقد أورد فى التحليلات فى الفصل الثالث : " من تغيير الدولة الفرنساوية (يقصد نظام الحكم فى فرنسا) وما تلاه من فصول ، وقد أوضح الطهطاوى هدفه من التعرض لنظام الحكم فى فرنسا وما طرأ عليه من تعديلات ثورية بقوله : " ولتكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، وتستوفى غالب أحكامهم وليكن فى تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر " . فهو يقصد بذلك صراحة أن يضع أمام المصريين نموذجاً حياً لكفاح الشعوب فى سبيل الديمقراطية لعلهم يجدون فيه مثلاً يحتذون به .

وقد كان من أهم ما أثار حماسة رفاعة الطهطاوى هو ما لاحظه من أن الدستور الفرنسى يقوم على نظرية فصل الدين عن الدولة فهو يقول فى " تلخيص الإبريز " :

" والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسعى الشرطة ومعناه فى اللغة اللاتينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسوله ، لنعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم فلاستمع فيهم من يشكو ظلماً أبداً والعدل أساس العمران".

وقارئ الجبرتى (117/3 وما يليها) يذكر كيف وقف الجبرتى كالمشدوه أمام ضمانات العدالة من ناحية إجراءات التحقيق فى محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر التى أوردها الجبرتى بنصها " لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام أى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض وذلك لأن الحقوق عند الافرنج مختلفة " .

ويشرح رفاعة الطهطاوى للمصريين أسباب ثورة 1830 فى فرنسا ويصف لهم الحال من الرأى العام بين الفرنسيين موضحاً عقائدهم السياسية الأساسية وذلك فى الفصل المسمى " فى ذكر مقدمة يتوقف عليها إدراك علة خروج الفرنساوية من طاعة ملكهم ، قال :

" إعلم أن هذه الطائفة (يقصد الفرنسيين) متفرقة فى الراى إلى فرقتين أصليتين وهما الملكية والحرية والمراد بالملكية ابتاع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لأولى الأمر ، والأخرى تميل إلى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر إلا إلى القوانين فقط والملك إنما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين فكأنه عبارة عن آلة ولا شك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا ، لفقد الاتفاق فى الرأى .. والملكية أكثرهم من القوس واتباعهم وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية .. فالفرقة الأولى تحاول إعانة الملك والأخرى تضعفه وإعانة الرعية .. ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للعرية ولا حاجة لملك أصلاً ، ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة او محكومة وجب أن توكل عينها من تختاره منها للحكم وهذا هو حكم الجمهورية ويقال للكبار مشايخ وللصغار جمهور ، (وهذا مثل مصر فى زمن حكم الحمامية فكانت لإمارة الصعيد جمهورية التزامية).

فى هذا الوصف الدقيق والتحليل المحكم للأوضاع السياسية فى فرنسا ولحالة الرأى العام فيها نحو 1830 لم ينقل رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين صورة للمجتمع الفرنسى فحسب وإنما ألقى عليها دروس منظمة فى النظم والمذاهب السياسية والاجتماعية ، لأول مرة تعلم المثقفون المصريون فى تاريخهم الحديث ان " الرعية " يمكن أن تتكتل حول مبادئ سياسية واقتصادية عامة

، ويمكن أن تنقسم   إلى أحزاب متصارعة رأياً وعملاً حول هذه المبادئ السياسية والاقتصادية العامة ، فصورة المجتمع المصرى يومئذ لم تكن تخرج عن أن مصر كانت " ولاية " تابعة للسلطان العثمانى ولاء غير مشروط بشرط لأن السلطان لم يكن يمثل السلطة الزمنية وحدها بوصفه سلطاناً أو مـ لكاً بل كان يمثل السلطة الدينية كذلك بوصفه خليفة المسلمين .

وفى كفاح مصر السياسى ضد الطغيان التركى المملوكى استطاع المصريون فى ثورة 1795 عام " الحجة " التى استكتبوها للباشا التركى ولمراد بك وابراهيم بك ، وفى ثورة 1804 عام خلع الباشا التركى وتنصيب الباشا ا لألبانى محمد على ، أن يرسوا أساساً هاماً فى السياسة المصرية وهو أن سلطة الوالى وسلطة المماليك يمكن أن تقيد بقيود وأن تعلق على شروط ، وهى الحكم بالعدل والكف عن المظالم واحترام أموال الناس والكف عن فرض الضرائب والمكوس الاستثنائية ، وكان أقصى ما وصل اليه المصريون عام 1804 أن كفاحهم السياسى هو إرساؤهم ذك المبدأ الخطير وهو جواز عزل الوالى إذا حكم بالظلم فى الرعية مستندين فى ذلك إلى حكم الشرع فى ا لحاكم الظالم ... ولقد كان يمكن لهذا المبدأ الخطير أن يكون حجر الأساس فى الفقه الدستورى المصرى لولا أنه كان مشوباً بفكرة الفصل بين فئات السلطان وذات ولاته وحكامه فى الأمصار .. أما ذات السلطان فقد كانت وظلت مصوتة لا تمس بحكم أنه كان الخليفة وفيه تمثلت السلطة الدينية إلى جانب السلطة الدنيوية ،

وأما ذات الولاة الحكام فقد كانت خاضعة للمسئولية ونتائجها لأنهم كانوا فى عرف ذلك الزمان ممثلين للسلط ـة الدنيوية وحدها ، أو ما ألف المفكرون أن يسموه " السلطة الزمنية " ، وقد ظل هذا الوضع شائعاً فى أوروبا نفسها طالما كانت فلسفة الحكم الشائعة فيها هى نظرية حق الملوك الإلهى .. فملا عصفت ثورة كروموبل فى انجلترا 1640 – 1645 والثورة الفرنسية 1789 بهذا الحق الإلهى تبلورت فلسفتان جديدتان إلى جانب فلسفة الملكية المطلقة وهما فلمسفة الملكية المقيدة من ناحية وفلسفة الجمهورية التى لا مكان فيها لملوك أو لسلاطين من ناحية أخرى ، وهذا بالضبط ما علمه رفاعة الطهطاوى لجيله منذ مائة وخمسين عاماً . قال لهم باختصار : " فى هذه البلاد ينقسم الناس إلى أقلية هم الملكيون المؤمنون بالملكية المطلقة وأكثرهم من القوس وأتباعهم " أى من رجال الكنيسة والمواطنين الخاضعين لنفوذ الكهنوت ، وإلى أغلبية وهم الأحرار الحريون أو من يسعون فى تاريخ الفكر السياسي بالليبراليين وهؤلاء إما من أنصار الملكية المقيدة التى تتوج القانون مكان الملك وتجعل من الملك مجرد " بصمجى " كما نقول أو آلة تطبق القوانين كما يقول رفاعة الطهطاوى أو مجرد رمز يملك ولا يحكم كما يقول الانجليز ، أما من أنصار الجمهورية الذين لا يرون حاجة لملك أصلاً ويطالبون بسيادة الشعب على نفسه من خلال وكلائه المنتخبين سواء فى مجلس الشيوخ أو مجلس النواب ،

وأكثر الأحرار من قادة الفكر والمثقفين وأغلب أبناء الشعب ، فالأحرار المعتدلون من أنصار الملكية المقيدة إذن كانوا ينادون بأن لملك فوق القانون لأنه يملك ولا يحكم أما المحافظون المتطرفون من أنصار لملكية المطلقة فقد كانوا ينادون بان الملك بموجب حق الملوك الإلهى فهو ظل الله على الأرض وفيه تمثلت الإرادة الإلهية التى تسير البشر وفيه تجسدت الشريعة السماوية التى بها تصرف أمور البشر ، وهذا معنى قول رفاعة الطهطاوى أن أنصار الملكية المطلقة هم رجال الكهنوت وكل ومن خضع لنفوذهم .

الجديد والخطير إذن فى هذا الكلام لم يكن أنه مهد الطريق لإعادة النظر فى مبدأ الولاء لمحمد على فمحمد على رغم جـ سامة حجمه لم يخرج عن كونه والياً من ولاة مصر وسلطة محمد على لم تتجاوز فى يوم من الأيام أن تكون سلطة زمنية دنيوية وعزلة إذن كان جائزاً إذا توفرت الإرادة والقدرة على عزله ، وإنما الجديد والخطير فى هذا الكلام أنه مهد الطريق للتخلص من الولاء لسلطان تركيا الذى وضعته الخلافة فى موضع العصمة عند المصريين وعند كافة أبناء العالم الإسلامى حتى أن محمد على وهو فى أوج انتصاره لم يجترئ على سحب ولائه الرسمى أو إنكار تبعيته الشكلية له

ولقد بلغ من هيلمانه الدينى رغم ضعف شوكته الزمنية امام المماليك فى مصر ، من على بك الكبير إلى مراد بك ، إن بونابرت نفسه حين جاء إلى مصر بحملته الفرنسية إدعى أمام المصريين أنه صديق السلطان المدافع عن حقوقه ، وأنه ما أتى إلا لتأديب المماليك ولم ينتقض عليه صراحة إلا حين انضم الباب العالى إلى المماليك والانجليز فى مقاومة بونابرت عسكرياً .

هذا هو ا لمعنى الخطير فكلام الطهطاوى : الولاء لسلطان تركيا ليس قدراً على المصريين فغيرهم من الأمم المتحضرة وقد وجد سبيله إلى الحرية يرفع نير ملوكهم على كواهلهم ، وهذا معنى قول الطهطاوى : " وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة 1790 من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ثم صنعوا الجمهورية واخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من باريس وأشهروهم مثل الأعداء ولا تزال الفتنة باقية الأثر " .

إن الطهطاوى لم يكن يدعو المصريين إلى التخلص من نير محمد على فكتابات الطهطاوى تدل على أنه كان شديد الإعجاب بشخصية المصلح فى محمد على ، بل كان يوحى إلى المصريين وإلى محمد على نفسه بالتخلص من نير السلطان العثمانى ، وهو حين يتحدث عن النظم الثلاث : النظام الملكى المطلق ونظام الملكية المقيدة ونظام الجمهورية ، يقول : " شريعة الإسلام التى عليها مدار الحكومة الإسلامية مشوبة بالأنواع الثلاث المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها وموارد ها " .

بعبارة أخرى هو يقول للمصريين فى استطاعتكم أن تشقوا عصا الطاعة على الخليفة العثمانى دون أن يغض ذلك من إسلامكم ولا شك أن هذا كان بمثابة رد على الرأى العام التقليدى وقياداته من المثقفين المصريين المحافظين الذين كانوا يومئذ يجدون غضاضة فى الثورة على الخليفة العثمانى ، وقد كانوا بالفعل يضعون العراقيل لهذا السبب فى طريق محمد على حين تمرد على سلطان تركيا ، أما رفاعة الطهطاوى فقد كان طريقه غير هذا الطريق ، لم يكن طريقه التماس حق الثورة فى الشريعة لإثبات شرعية أو وجود الخروج عن طاعة الخليفة العثمانى ، وإنما كان طريقه تحقيق استقلال مصر بفصل الدين عن الدولة ، وهذا معنى قوله : " فلنقل أن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية وإنما هى مأخوذة من قوانين أخرى غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ، يقال لها : الحقوق الفرنساوية ، أى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الإفرنج مختلفة " .

هو إذن يريد أن يحرر المصريون بموجب حقوقة الإنسان وليس بموجب سنن السلف الصالح ثم ترتفع نبرته العقلانية فيكاد يحض الناس حضاً على العقلانية أساساً للعدل ولحضارة الإنسان ، إن العدل والحضارة مترابطان ، فالعدل سبيل الحضارة وقيم الدين جوهرها العدل ولكن العقل أيضاً يمكن أن يؤدى إلى العدل ومن ثم الحضارة ، فهو يقول فى دستور 1818 المعروف فى فرنسا " الشرطة " أى الميثاق ،

إن غالب ما فيه ليس من تعاليم الدين ولكنه من إملاء العقل : لنعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير المماليك وراحة العباد وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم وهو شبيه بتأملات الجبرتى حينما وقف مشدوهاً أمام عدالة القانون الفرنسى فى محاكمة سليمان الحلبى فقد أذهله توفر هذه العدالة فى قوم عقلانيين لا دين لهم ، وقد كان الفرنسيون يتباهون بهذه العقلانية أيام الثورة الفرنسية حتى نهاية حكم نابليون بسبب مؤازرة الكنيسة لحكم البربون وتأييدها حق الملوك الإلهى .

وقد بلغ حد العقلانية والثورة على الكهنوت أقصى مداه حين توج هيبير " العقل" فى كاتدرائية نوتردام ثم عزل روبسبير " العقل " وتوج مكانه الكائن الأسمى " ....

فالقضية إذن كما طرحها الطهطاوى خلاصتها كالآتى : كل نظم الحكم السائدة فى أوروبا من الملكية المطلقة والملكية المقيدة إلى الجمهورية لهاسند فى الشريعة الإسلامية فليعلم المصريون والعرب بعامة إذن أن خروجهم عن طاعة السلطان العثمانى لا يغض من إسلامهم فى شئ وهو قد وجد بدراسته للمجتمعات الأوروبية ولا سيما المجتمع الفرنسى أن رجال الكهنوت وأتباعهم هم الذين كانوا يوطدون لحق الملوك الإلهى بين مواطنيهم

وهو ما يجافى العدالة والمدنية وقد وجد الأوروبيون الحل فى نظرية فصل الدين عن الدولة وإقامة الدساتير والقوانين الوضعية النابعة من العقل ومن احتياجات المجتمع من الفلسفات السياسية والاجتماعية المنية القائمة على ما يسمى بحقوق الإنسان فكانوا بذلك أقرب إلى تحقيق العدالة وإلى نشر المدنية بين دعاة الثيوقراطية وحق الملوك الإلهى .

وبعد أن شرح رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين نظم الحكم الثلاثة التى كانت تتصارع من أجلها الجماهير والقيادات السياسية فى فرنسا فى زمن شارل العاشر نحو 1830 وبعد أن حلل لهم الفلسفات الاجتماعية المخلفة التى كان يستند إليها كل نظام من هذه النظم الثلاثة : الملكية المطلقة والملكية المقيدة والجمهورية تعرض لشرح الأزمة الدستورية التى أفضت إلى عزل شارل العاشر وإعلان لويس فيليب ملكاً على الفرنسيين وقال الطهطاوى فى " تلخيص إبريز " :

" وقد قلنا فيما سبق أن ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية (يقصد مجلس النواب) يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية ، فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير (يقصد بولنياك) ومن معه من الوزراء الستة فلم يصغ لكلامهم أصلاً وقد جرت العادة أن ديوان الـ مشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه (يقصد يقرر فيه كل شئ بحسب رأى الأغلبية) ،

وكان المجتمع من هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفساً ، ومنها ثلثمائة لا يرضون بإبقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون إبقاءهم ، ثم حرم القانون (يقصد عطل الدستور) بعدة أوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم وإخراجهم له من بلادهم معزولاً ".

هذه هى ثورة 1830 التى عاشها رفاعة الطهطاوى يوماً بيوم ومسه منها لهيب أشعل قلبه وأضاء عقله وعلمه أن الحرية جوهر مرادف لإنسانية الإنسان ، وفى هذا الوصف المثير صور ة رفاعة الطهطاوى كيف استولى الشعب فى باريس فى الأوتيل دى فيل وهى دار البلدية وكيف خرج الحرس الوطنى للدفاع عن الشعب ن وكيف رفع الفرنسيون من جديد التربكولور أى العلم المثلث الألوان على الكنائس والمبانى العامة وهو علم الثورة الفرنسية الذى كانت الملكية قد ألغت ه بعد سقوط نابليون وعودة الحكم إلى البوربون وكيف انضم الجيش إلى الثوار وكيف انتهى الأمر بعزل شارل العاشر وطرد ولى العهد إلى انجلترا ويتولى لافاييت رياسة الحكومة المؤقته وبدعوة لويس فيليب دوق أورليان ليكون وصياً على العرش ثم إعلانه ملكاً على الفرنسيين بعد أن أقسم يمين الولاء للدستور .

فأسباب ثورة 1830 كما شرحها رفاعة الطهطاوى لمثقفى جيله تتلخص فى شئ واحد وهو الأوتوقراطية أو الحكم المطلق وقد تجلت أوتوقراطية شارل العاشر فى خرقه دستور سنة 1818 مرتين : مرة بتمسكه بوزارة بولينياك التى أقالها الأغلبية البرلمانية ولجوئه إلى إصدار سلسلة من القوانين غي الدستورية دون رجوع إلى البرلمان ، وأمره بفرض الرقابة على المطبوعات وبمصادرة الحرية الصحفية وحرية التعبير بوجه عام ، وقد أورد رفاعة الطهطاوى فى تلخيص الإبريز نص اليمين الدستورية التى حلفها دوق أورليان قبل إعلانه " ملك للفرنسيين " وهذا نص اليمين :

" رضيت من غير شرط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة وبتلقيبى ملك الفرنسيين الذى اعطيتموه لى ، وها أنا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على أنى أحفظ ذلك . ثم قام الملك مكشوف الرأس ورفع يده اليمنى وشرع يقول فى الصيغة المترجمة : أشهد الله سبحانه وتعالى على أن احفظ مع الأمانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع ما اشتملت عليه من الإصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة وعلى أنى لا أحكم إلا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها وأن أعطى لكل ذى حق حقه بما هو ثابت فى القوانين وأن أعمل دائماً على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها " .

لقد أزيلت من "الشرطة" أو الدستور الفرنسى كافة النصوص التى تضع الملك فوق الدستور وإذاكان دستور 1830 قد أكد سيادة الشعب فإن اليمين الدستورى لا تخرج عن كونها تأكياً لمعنى واحد وهو أن الأمة هى مصدر ا لسلطات وأن الدستور فوق الملك ، فالملك يستمد صفته الملكية لا بالحق الإلهى ولا بحق الوراثة ولكن باختيار الشعب وهذا معنى إعلان لويس فيليب بأنه رضى دون قيد أو شرط بتقلد لقبه الجديد " ملك الفرنسيس الذى أعطيتموه إياه " .

وقد فسر رفاعة الطهطاوى معنى هذا التغيير الثورى الذى أدخلته الثورة 1830 علىدستور 1818 بقوله : " وأن يلقب بملك الفرنساوية لا يملك فرنسا والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكاً (يقصد أن ينقل السيادة إلى المواطنين الذين أصبح بيدهم أن يختاروا ملكهم) بخلاف ملك فرنسا ، فإن معناه أن أرض فرنسا مادامت باقية فهو سيدها وملكها ولا منازع له من أهل البلاد فيها ".

باختصار : الملكية الوراثية تجعل من البلاد أشبه شئ بضيعة خاصة بملكها الملك وأما الملكية الم نتخبة فهى تقيم الملك بإرادة الشعب فهى أشبه شئ بجمهورية رياسية مدى الحياة أو هى مرحلة متوسطة بين الملكية والجمهورية فى عرف الفقه الدستورى ، أو بلغة رفاعة الطهطاوى : " وسبب ذلك أن الملوك السابقين كانوا يلقبون ملك فرنسا وكان إذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته :

(أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا ونوار (يقصد نافار) .... قد أمرنا ونأمر بما سياتى هنا ...) وأما ملك الفرنساوية فإنه يقول فى كتابته : (أنا فلان ملك الفرنساوية ... قد أمرنا ونأمر) . ففرق بين العبارتين فإن الأول جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار بإنعام الله سبحانه وتعالى عليه ، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لإرضاء الفرنساوية ، فإنهم يقولون أن ملك الفرنسيس بإرادة ملته (يقصد أمته أو شعبه) وتمليكهم له ، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية ، فظهر من هذا قوله : لفضل الله معناه عندعم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه ، كما أن قوله ملك فرنسا معناه صاحب الأرض والسلطنة عليها ، وإلا فلو كانت عندنا لاستوت العبارتان : فإن كون الملك ملكاً باختيار رعيته له لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان ولا فرق عندنا مثلاً بين ملك العجم وملك أرض العجم " .

بمعنى أخر أن كل ملكية وراثية تتضمن فى فهم الأوروبيين درجة من درجات الملك بإرادة شعبه لأن من ولاه الله لا يعزله إلا الله فى عرفهم ، أما عندنا فلا تعارض بين المبدأين وأيا كان الأمر فقد طرح رفاعة الطهطاوى على مثقفى جيله لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر قضية الحق الإلهى والحق الطبيعى كما يسمونها فى الفكر الأوربى وصور لهم الصراعات الدامية التى اكتشفت تاريخ هذه القضية بغية الوصول إلى حل لها .

لقد ترجم رفاعة الطهطاوى فى " تلخيص الإبريز " نص دستور **1818** " الشرطة " أو " الميثاق " كما كان يسميه الفرنسيون كما ترجم نصوص المواد المعدلة التى أدخلتها عليه ثورة **1830** لإصلاحه ، وهى ما أشار إليه لويس فيليب عند حلفائه اليمين الدستورية بقوله أنه يقسم على أن يحترم الشرطة مع ما اشتملت عليه من الإصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة فقد لمواطنيه بحثاً رائعاً فى تطور الفكر السياسي والاجتماعى وقال الطهطاوى فى تلخيص الإبريز معلقاً على مواد الدستور :

" ثم إن هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة على سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف بتاريخ الميلاد فراجعها فى باب (قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة) . فإذا تأملت رأيت أغلب ما فى هذه الشرطة نفسياً وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ولنذكر هنا بعض الملاحظات فنقول :

" قوله فى المادة الأولى : سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة (يقصد أمام القانون) معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط (بقصد أثر) عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً إلى إجراء الإحكام

" ولقد كادت هذه القضية تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضرية .

" وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان ، عمل القوانين هى المحكمة المعتبرة " .

" وأما المادة الثانية (سائر الفرنساوية يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً لبيت المال ، كل إنسان حسب ثروته) فهى محض سياسة ويمكن أن يقال أن الفرد يقصد الضرائب وبنحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الإسلام كماهى فى تلك البلاد لطابت النفس خصوصاً إذا كانت الزكوات والفئ والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أأقوال مذهب الإمام الإعظم ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ....

" وأما المادة الثالثة (كل واحد متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت) فلا ضرر فيها أبداً بل من مزاياها أن تحمل كل إنسان على تعهد تعليمه حتى يقرب من منصب إعلى من منصبه وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة وا حدة مثل أهل الصين والهند ، ممن يعتبر تـ وارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائماً حرفة أبيه .

" وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فإن شريعة قدماء القبطة (يقصد قدماء المصريين) كانت تعين لكل إنسان صنعته ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده قيل سبب ذلك أن جميع الصنايع والحرف كانت عندهم شريفة فكانت هذه العادة عندهم من مقتضيات الأحوال لأنها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع .

" ويرد عليه أنه ليس فى كل إنسان قابلية لتعلم صنعة أبيه فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً فى هذه الصنعة والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله وبلغ آماله " .

" أما المادة الرابعة والخامسة .. (الرابعة : ذات كل واحد من الفرنساوية مستقل بها ويضمن له حريتها فلا يتعرض له إنسان إلا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة (يقصد إلا وفقاً لأحكام القانون) وبالصورة المعنية التى يطلبه بها الحكم . الخامسة : " كل إنسان فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عباداته " فإنها نافعة لأهل البلاد الغرباء ولذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء " .

أما بالنسبة للمادة السادسة فى دستور **1818** القائلة : " بشترط أن تكون الدولة على الملة الكاثوليكية الحوارية الرومانية " ، وبالنسبة للمادة السابعة فيه القائلة : " تعمير الكنائس الكاثوليكية وغيرهم من النصرانية يدفع له شئ من بيت مال النصرانية ، ولا يخرج منه شئ لتعمير معابد غير هذا الدين " ، فقد أوضح الطهطاوى فى الفصل المسمى

" خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد 1831 من الميلاد وتصليح الشرطة " أن من التعديلات التى جرت على دستور 1818 إلغاء النص القائل بأن دين الدولة هو المسيحية وتحريم وقف شئ على الكنائس او إعطاء هبة لها إلا بإذن صريح من الدولة ، كذلك أوضح الطهطاوى أن من أهم التعديلات التى أدخلتها ثورة 1830 على دستور 1818 النص على عدم جواز عزل القضاة وعلى علانية المحاكمات وعلى حق أى مواطن فى الشكوى لأعضاء البرلمان وحقه فى تقديم الاقتراحات إليهم ، كذلك من أهم التعديلات التى أدخلتها ثورة 1830 على دستور 1818 نص واضح يؤكد ضمان الحرية الـ شخصية وينص على معاقبة من يقبض على أى إنسان إلا وفقاً لأحكام القانون معاقبة صارمة ، وكذلك أضيف نص بمعاقبة كل من يتعرض لعابد فى عبادته بدلاً من النص القديم الغامض القائل بأن واجب الدولة إعانة الناس على إقامة عباداتهم فى حرية ومنع من يتعرض لهم ، وكذلك أضيفت مواد خاصة بتنظيم الخدمة العسكرية ومواد بتنظيم مجلس البرلمان ومواد تنص على سرية الانتخابات وغير ذلك من النصوص التى تعمق الديمقراطية وتوسيع قاعدتها .

أما بالنسبة للمادة الثامنة من دستور 1818 ومنطوقها : " لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بـ شرط أن لا يضر مافى القانون ، فإذا أضر أزيل " فقد علق عليها الطهطاوى بقوله : " فإنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الإنسان سائر ما نفس صاحبه خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجورنالات والكازيطات الأولى جمع جورنال والثانية جمع كازيطة ، فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية او خارجية أى داخل المملكة او خارجها ، وأن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، إلا أنها قد تتضمن أخباراً تشوق نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم .

" ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل عظيماً أو رديئاً وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجورنال ليكون معلوماً للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الإنسان مظلوماً من إنسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر " .

هذا عرض موجز لأهم ما كتبه الطهطاوى ، أبو الديمقراطية المصرية فى كتابه الخطير " تخليص الإبريز فى تلخيص باريز " أيام أن كان المصريون لا يعرفون شيئاً عن أسس الديمقراطية أو حقوق الإنسان غير بعض ذكرياتهم البعيدة عن دعا وى بونابرت التى تداخل فيها ختل الغازى بأحلام الثائر عن الحرية والمساواة ولإخاء على أرض مصر ، وغير ذكرياتهم البعيدة عن تجربتهم البرلمانية المبتورة فى زمن الحملة الفرنسية وقد كانت غصة فى حلق الفرنسيين والمصريين على السواء ، ثم جمع محمد على كل أعنة فى يديه قر ابة ثلث قرن وأقام حكمه الأوتوقراطى المطلق الذى لا مكان فيه لشعب ولا دستور ، ولا مجال لشورى ولا لحقوق . ولا شك أن تمرد محمد على على ورية السلطان العثمانى الحاكم بحق الملوك الإلها قد جعلت منه فى نظر رفاعة الطهطاوى عاهلاً شبيهاً بلويس فيليب " ملك الفرنسيين " يحكم بالحق الطبيعى وقد كانت هناك بالفعل مودة عظيمة بين الرجلين ولكن هذا اللغم الخطير الذى بثه رفاعة الطهطاوى تحت عرش محمد على كان فى الوقت نفسه الأساس الأول والأكبر مناقشة شرعيته وشرعية ذريته كحاكم مطلق لا تربطه أو تربطهم بالشعب المصرى مواثيق ولا دساتير ، فكأنى به يقول للمصريين أجل إن محمد على يحكم حقاً بالحق الطبيعى ولكنه حق السيف والمال أو كما يقول القدماء سيف المعز وذهبه ، ويفرض الولاء بالإكراه أو يشتريه بالثمن ، وقد كان أجدر به أن يجعل سلطانه على قلوب الرعية لا على أجسادهم .

الفرد الإيجابي في نظر الطهطاوى

في كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) يشن الطهطاوي هجوماً كاسحاً على الفرد المتميز بأنانية مفرطة. وفي فصل بعنوان (محو محبة النفس من الأطفال في حال صغرهم، وإزالتها عن الكبار في حال كبرهم) ينبه إلى هذا النوع من الأفراد الذين لا يبنون وطناً ولا يقيمون المجتمع الفاضل. فقد عرف رفاعة كم أن الاهتمام بالذات ومحبة النفس دون أي شعور بأحاسيس الآخرين ومصالحه/ وكم أن اهتمامهم بذواتهم ومحبتهم لأنفسهم دون أن يقيموا وزناً لمصالح المجتمع واهتماماته ...

كم أن ذلك خطير ومخل بوحدة المجتمع الانساني (فحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشري). وأن يتعبد المرء لنفسه بحيث تصبح هذه النفس (محبوبته وبغيته) فذلك من الصفات البغيضة التي عليه التخلص منها لأنها ن تكون مبعثاً لسعادة ولا سبباً لفرح نفسي (... وكيف ينال السعادة من خص نفسه بالمحبة، ولم يجعل لأخيه منها قدر حبة؟).

لقد لاحظ الطهطاوي إبان وجوده في باريس أن ثمة خللاً يعيشه المجتمع الفرنسي ويتمثل في الفردانية المطلقة. فالفرد هناك أصبح في حالة من الانسلاخ التام عن المجتمع وشجونه. وقد ينتج عن ذلك تفكك البنية المتماسكة للمجتمع الفرنسي على الرغم من تمدنه وتحضره. ولهذا السبب فإن رفاعة تناول هذه المسألة بمزيد من العقلانية. فهو يرى إلى ذلك التلازم الذي ينبغي أن يكون بين الفرد والجماعة حيث أن الواحد منهما يتمم الآخر ويكمله. فالفرد يتميز بكونه عضواً في مجتمع، والواجب يفرض عليه بذل كل ما يستطيع لرفعة هذا المجتمع وعزته (فالواجب على كل عضو من أعضاء الوطن أن يعين الجمعية (المجتمع) بقدر الاستطاعة ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه العمومية).

أما إذا رغب الفرد في أن يحقق لنفسه امتيازاً ما، أو أن يحقق بروزاً شخصياً، فإنما يأتيه ذلك بمقدار عطاءاته وبذله في سبيل الجماعة التي هو جزء لا يتجزأ منها. وفي هذا الصدد حدد رفاعة الطهطاوي معايير جديدة للشرف، والمكانة الاجتماعية، والبروز الفردي. فبعد أن كانت صفة (الرجل الشريف) تتوارث أباً عن جد، وهي تخضع لانتماء الفرد إلى إحدى العائلات أو القبائل ذات الحسب والنسب أو ذات التاريخ السياسي أو المالي، أصبحت الآن تُكتسب من طريق آخر، أي طريق البذل والعطاء.

فـ(الرجل الشريف) هو ذلك الذي يبذل في سبيل مجتمعه ما لا يبذله الآخرون، أو ما لا يقدرون على بذله. وفي تنظيره لهذه المسألة وجد رفاعة أن معايير الشرف والمكانة الاجتماعية شهدت مرحلتين مختلفتين في التاريخ العربي، وهما مرحلة ما قبل ومرحلة ما بعد الاسلام. فالعرب، قبل الاسلام، رأوا إلى الرجل الشريف وذي المكانة على أنه كثير المال والجاه، في حين رأى إليه الاسلام أنه ذلك الشخص المتميز من غيره بـ(المواهب الحميدة والفضائل المفيدة).

وانطلاقاً من ذلك المفهوم لم يعترف أثرياء قريش بنبوة محمد بن عبد الله الذي لم يكن ثرياً ولا صاحب جاه، ولذلك لما نزل القرآن على سيدنا محمد تعجبوا في بادئ الأمر، واعترضوا نزوله عليه بما حكاه الله عنهم في قوله تعالى: (وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) الزخرف- 31 .

وقد اعتبر رفاعة أن كلام أهل قريش، هنا، ينطوي على قياس منطقي. فالرسالة لا يبلغها الله تعالى إلا لمن كان شريفاً في حسبه ونسبه، والشريف ـ على رأيهم ـ هو من كثر ماله وعظم جاهه. وطالما أن محمداً لم يكن يمتاز بهذه الصفات فإن رسالة الله ـ على هذا الأساس ـ لا تليق به.

وفي هذا يقول رفاعة :" فالقياس، في حد ذاته، صادق. إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة بتفسير) الشريف)، فكانت شبهة، حيث اشتبه عليهم منصب الدين والنبوة بمنصب الدنيا".

انطلاقاً من هذه النظرة المتقدمة إلى الانسان الفرد ذهب رفاعة إلى التأكيد على أن ما يُكسِب المرء شرفاً ومكانة اجتماعية ليس حسبه ونسبه، ولا انتماءه إلى إحدى العائلات ذات الثروة والجاه، وإنما عمله وإنجازاته ومجموع (المنافع العمومية) التي يبذلها في مجتمعه. ونرانا مضطرين هنا للتوقف عند نقطة جوهرية تتعلق بالعمل القائم على التنافس بين الأفراد. فلئن كان رفاعة قد وقف ضداً للفرد المتسم بنزعة أنانية وبمحبة مفرطة للذات، غير أه رفض أن) يقنع) الأفراد بما هم عليه.

فالمطلوب من الفرد أن يكون اجتماعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبأن يكن عاملاً سواء في حقله أم في مكتبه أم في مصنعه .وينطلق رفاعة في ذلك من قَولة الجنيد التي يذهب فيها إلى (أن الله لا يحب الرجال البطال، وأن من تعطّل تبطّل).

وقد فرّق الطهطاوي بين الفرد الايجابي والفرد السلبي. فالأول، وهو فرد عامل، يستطيع أن يقيم حضارة، على حين أن الثاني، وهو فرد بطّال أي بدون عمل ينجزه، ليس بوسعه أن يسهم في صنع المدنية أو الحضارة. فالجمعية التأنسية) وهي تسمية يطلقها رفاعة على المجتمع الانساني) لا يستطيع أن ترقى وتزدهر بأفراد سلبيين (متبطلين) وإنما بأفراد إيجابيين (عاملين). ومن هنا إصرار الطهطاوي في أكثر من مكان في كتاباته على خلق المجتمع العامل، الديناميكي، ومن هنا أيضاً إصراره على رفض مبدأ الزهد والاعتزال عن المجتمع والنا .وينبع إصرار الطهطاوي من معاينته اليومية لما يجري داخل المجتمع المصري.

فهذا المجتمع يزخر بجموع من المتبطلين، الزاهدين، القانعين بكفاف العيش يأتيهم هبةً من هنا وهناك. ولعل ما أثار حمية الطهطاوي، بل وأثار حفيظته، أن هذه الجموع من البشر المتعطلين كانت تدعي الإيمان ومحبة الله وقد انخرطت في بعض مسالك من التصوف تخالف الاسلام، شكلاً ومضموناً. وقد استهوت هذه المسالك الصوفية، البعيدة من التصوف الحق،أوساطاً شعبية عريضة مولعةً بكل غريب، وبكل عادة غير مألوفة. وكان من أثر ذلك، وبتشجيع من الولاة العثمانيين أحياناً، ظهور أعداد كبيرة من الزهاد ومدّعي التصوف الذين كانوا يرددون مصطلحات الصوفية (دون فهم ولا فقه ولا علم ولا دين).

ويتفق المؤرخون لهذه الحقبة من تاريخ مصر، وللحقبة التي سبقتها، أن هذه المجموع التي تمارس التبطل وتدعي الزهد والتصوف والاعتزال عن الناس، كانت تمارس الكثير من الموبقات والعادات السيئة وعلى رأسها تعاطي الحشيش، وقد كان ذلك عادة مألوفة وغير مستهجنة بين هؤلاء.

ويروي لنا المتصوف المصري الشهير عبد الغني النابلسي حادثة مضحكة عن أحد هؤلاء وهو ـ من يتعاطون التصوف والحشيش على السواء، وذلك في كتابه (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الشام ومصر والحجاز). فهو يخبرنا أنه قام، يرافقه زميل آخر له هو زين العابدين البكري، بزيارة إلى بولاق. وفي مسجدها الذي يدعى مسجد السنانية شهد صلاة الجمعة مع رفيقه البكري. وقام أحد الخطباء يؤم المصلين.

لكن هذا الخطيب كان يتمايل يمنةً ويسرة ويكثر من اللحن مما حمل زين العابدين البكري على الإكثار من الابتسام. فشعر الخطيب المذكور بأن زين العابدين، وكذلك النابلسي، مغتبطان أشد الاغتباط بكلامه ومنطقه السليم، ولكنهما في حقيقة الأمر كانا يسخران منه خاصة وأن ملامح التخدير بدت واضحة على وجهه وفي حركات يديه، وأيضاً في تمايله كالسكران. وبعد حين توقف الخطيب وتوجه نحو زين العابدين يدعوه إلى اعتلاء المنبر للخطابة

لأن هذا التكريم لا يستحقه هو وحده. لكن الحاضرين منعوه من التمادي مع زين العابدين وأفهموه حقيقة حاله، وأن الشيخ زين العابدين كان يبتسم استنكاراً لكثرة لحنه وانعدام منطقه. فما كان من هذا الخطيب إلا أن اعتذر لأنه كان غائباً عن الوعي بسبب تناوله مقداراً كبيراً من حشيشة الكيف، وضجت قاعة المسجد بكلمات السخرية والضحك. وظل الوضع على هذه الحال إلى أن تطوع بعض المصلين وطرده من المسجد. وحول هذه الحادثة يعلق المفكر المصري توفيق الطويل، فيقول: (ولو كان تعاطي الحشيش اتهاماً يشين صاحبه لالتمس هذا الإمام عذراً للحنه غير هذا العذر).

إذن فقد كثر الأفراد العاطلون عن أي عمل، وزادت أعداد المشعوذين ومدّعي الولاية الصوفية (وكان تأثيرهم على الناس عجيباً نتيجة لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والأمنية في العصر العثماني، فتشبث الناس بأية بارقة من النور والقوة لتنقذهم مما هم فيه من الفزع والخوف، وكانت تلك البارقة هي ... طرق التصوف).

لعل ما تقدم يمحضنا صورة جلية عن البيئة التي وجد رفاعة الطهطاوي أن لا شيء ينقذها من تخلفها غير العمل والبذل والكد والعطاء . فالمرء ينظر إليه بقدر أفعاله وبقدر ما يعطيه لمجتمعه من عمل يعود بالمنفعة عليه وعلى الآخرين، فـ(ليست الفضائل إعداماً بل هي أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات). إذن (الأفعال والأعمال) وحدها تحدد قيمة الانسان ومكانته. فهذه الأفعال والأعمال تخلق فرداً إيجابياً يكدّ من أجل خيره وخير الآخرين.

أما ما يقال عن (فضيلة الزهد) فلا يتعدى كونه نوعاً من الهراء يجب أن يتوقف، لأنه لا شيء كالزهد واعتزال المجتمعات والعيش بعيداً من قضايا الناس ومشاغلهم، ما يهدر طاقة الانسان ويبددها. فالبديل من الزهد هو الانخراط في المجتمع بحيث يصبح مصير الفرد من مصيره، يكبر في كبره ويصغر في صغره .والبديل من الاعتزال في المغاور والصوامع هو أن يخوض المرء معركة الحياة بكل ما أوتي من جهد وتعب وتصميم، لأن المطلوب منه أن يقيم حضارة لا أن يهدم حضارة. فالعمل بناء ومراكمة على حين أن التبطل (ويسميه رفاعة إعداماً) هدم وتبديد.

وعلى هذا فهو يقف ضد الرأي القائل بأن (الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات في الجبال، وبناء الصوامع في المفازات، والسياحة في البلدان للدروشة).

فهذا السلوك يهدر طاقات الانسان ويبددها بلا ثمن، والذين يمارسون مثل هذا السلوك (لا يحصل لهم شيء من الفصال الانسانية المدنية – العفة، النجدة، السخاء، العدالة – بل تصير قواهم وملكاتهم التي ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة، لأنها لا تتوجه إلى خير أو إلى شر بالنسبة إلى العموم) .

رفاعة الطهطاوى والفكر الراديكالى

وتطوير التعليم

كان الإتصال بالغرب, فى العالم الإسلامى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين, سريع ومتواصل. ففى عام1833 م, بعث إبراهيم باشا رسالة إلى السلطان محمود الثانى فى تركيا قال فيها: "إن محاولة النهضة لا تبدأ بتزويد الشعب بالملابس الضيقة والبنطلونات. وكان الأولى بالباب العالى أن يهتم بتنوير الأذهان أولا"

وفى عام 1860م, جاءت مجموعة من الأتراك تنادى بتطوير قوانين الإمبراطورية العثمانية. حتى تكون على النمط الأوروبى. وفى مصر, صعد إلى الحكم إسماعيل باشا, ابن إبراهيم باشا, ذو الثقافة الفرنسية. وفى نفس الوقت فى تونس, ظهرت مجموعة من المصلحين على رأسها خير الدين. وفى سوريا ولبنان, لعب المسيحيون الشوام دورا هاما فى نقل الثقافة الأوروبية إلى الشرق الأوسط عن طريق الترجمة والصحافة. فهم أول من أقام الصحافة الحديثة فى العالم العربى.

وبدأت تظهر دعوات للإصلاح تناقش موضوعات وتطرح أسئلة هامة مثل: هل دعاوى الإصلاح يجب أن تكون مقصورة على مبادئ الشريعة الإسلامية؟ أم من الضرورى الإستفادة من التجربة والثقافة الأوروبية؟ وهل هناك تعارض بين تعاليم الدين الحنيف وبين حضارة الغرب؟

هذه القضايا, حاول كتاب النهضة فى العالم الإسلامي الإجابة عليها. فمثلا, ظهر فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كتاب مثل صادق رفعت باشا, وضياء باشا ونامق كمال. نادوا بالانفتاح على الغرب. مع الاحتفاظ بالقيم والتعاليم الإسلامية. وفى شئون الحكم, كانوا يطالبون بالديموقراطية ,التى تأخذ بالنظام البرلمانى الحديث, كأسلوب متطور لنظام الشورى فى الإسلام.

وفى مصر, ظهرت مجموعة أخرى من الكتاب الليبراليين. أمثال رفاعة الطهطاوى (1801-1873م). تنادى بالإصلاح السياسى والتطوير, مع الاحتفاظ بالقيم والمبادئ الإسلامية. ولكن من هو رفاعة الطهطاوى هذا؟ وما هى أفكاره؟

لقد تركت أفكار الثورة الفرنسية رواسب عميقة داخل نفسه بالرغم من تعليمه الأزهرى السابق. فقد كان يعتقد أن المجتمع الصالح, هو المجتمع المبنى على أسس العدالة. وأن الهدف من الحكومات, هو رعاية مصالح المحكومين. وأن الشعب لا بد له من المشاركة فى الحكم. لذلك يجب إعداد أفراد الشعب لهذا الغرض.

وكان يرى أن القانون يجب أن يكون ديناميكى. يتغير تبعا للظروف. وأن الحكام الصالحين فى وقت ما, ليسوا بالضرورة صالحين فى كل وقت. وأن حب الوطن هو أساس كل الأخلاق السياسية. وأثناء إقامته فى باريس, قام الطهطاوى بالإتصال بعلماء الحملة الفرنسية المستشرقين. وكانت حضارة مصر القديمة قد ملكت عليه كل وجدانه. وكان هذا يدل على فهم الطهطاوى الصحيح والمبكر لقضية الأصالة والمعاصرة. ووعيه العميق لمعنى الكلمات التى خاطب بها أحد علماء الحملة الفرنسية (جومار)، طلاب البعثة المصرية فى حفل أقيم عام **1828**م لتوزيع الجوائز على الناجحين حيث يقول: " إنكم منتدبون لتجديد وطنكم الذى سوف يكون سببا فى تمدين الشرق بأسره...أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم "...

وعندما عاد الطهطاوى إلى مصر, نشر ملاحظاته عن المجتمع الفرنسى فى كتاب تخليص الإبريز فى تلخيص باريز. الذى ترجم إلى اللغة التركية وعدة لغات أخرى. وبه ملاحظات الطهطاوى عن الشعب الفرنسى. فهم محبون للنظافة وتعليم الأولاد. ومحبون للعمل, ولا يميلون إلى الكسل. وبهم شغف للمعرفة والإستطلاع . وفى علاقاتهم العامة, يثقون فى بعضهم البعض. ونادرا ما يخدع أحدهم الآخر.

يحتل كتابه تخليص الإبريز أهمية خاصة بين تلك المؤلفات. فهو بحق أول نافذة أطل منها العقل العربى على الحضارة الغربية الحديثة. ويعتبر أشهر كتب الرحلات العربية فى العصر الحديث . والبيان الفكرى الأول للبرجوازية المصرية الناشئة. وأول كتاب عربى يعرف الفكر الليبرالى من ناحيته النظرية والتطبيقية .إلى جانب عرضه لنظم الحكم الدستورية الأوروبية. أهم ما فى الكتاب, الفصول التى تتعرض لوثيقة إعلان حقوق الإنسان التى جسدتها الثورة الفرنسية بتأثير من فلاسفة عصر التنوير . وترجمته للدستور الفرنسى, دستور عام 1814م .

ثم عمل الطهطاوى فى الترجمة فى المدارس الحديثة التى أنشأها محمد على. وفى عام 1836م, عمل فى مدرسة الألسن, ثم رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية. وقام فى هذه الفترة بترجمة ما يقرب من العشرين كتابا فى الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية. وأشرف على ترجمة المئات من الكتب الأخرى إلى اللغة العربية والتركية. منها كتب فى التاريخ القديم, وتاريخ العصور الوسطى. وتاريخ ملوك فرنسا, وحياة فولتير وبيتر الكبير, وحياة تشارلز الثانى عشر والإمبراطور شارل الخامس وبطرس الأكبر والإسكنر المقدونى وغيرها.

وقد كانت تراجمه لمشاهير وعظماء العالم بطلب من محمد على .نظرا لإهتمامات محمد على الشخصية بحياة العظماء. لأنه كان يحاول تقليدهم والإستفادة من سيرهم. لكن أعمال فولتير وجان جاك رو سو ومونتسكيو (ابن خلدون الغرب), كانت من إختيار الطهطاوى نفسه.

إشترك فى وضع السياسة التعليمية للدولة المصرية . وشجع طبع الأعمال الأدبية العربية العريقة, مثل أعمال ابن خلدون فى المطبعة الأميرية ببولاق.

فى السنوات الأخيرة قبل وفاته, نشر عدة مقالات فى إصدارات وزارة المعارف. وألف كتابا عن تاريخ مصر وعن التعليم. مثل كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين. وكتاب مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية. وكتابه الأخير يوضح الإتجاه الليبرالى الذى رسمه الطهطاوى للمجتمع المصرى. وكيف كان المجتمع المصرى فى الماضى. وكيف فقد طريقه. وكيف يعود إليه. ويوضح نظرية الطهطاوى فى التعليم المصرى. التى أتبعت فى عهد إسماعيل باشا والحكام الذين أتو بعده.

لم تخرج نظرية الطهطاوى فى التعليم عن التعاليم الإسلامية .فقد كانت السنة وأحاديث الصحابة فى أمثلته وكتاباته. لكنه أعطى السنة وسير الصحابة بعدا ومفهوما جديدين. لأن الحكومات الإسلامية فى ذلك الوقت, كانت حكومات أوتوقراطية. من الصعب تغييرها إلى حكومات ديموقراطية ليبرالية على النمط الأوروبى دفعة واحدة .

لذلك كان ينادى بالإصلاح التدريجى فى نظام الحكم. فالحاكم يجب أن تكون سلطاته مقيدة بالقوانين. والحكومة يجب أن تكون مسؤولة أمام ممثلى الشعب. أما بالنسبة للشريعة, فهو أول من أشار إلى فتح باب الإجتهاد. وكان من رأيه أنه لا تعارض بين الشريعة والقوانين الوضعية. أى أن الشريعة يمكن أن تفسر فى ضوء الحاجات والمتغيرات الحديثة. مما يضمن للمجتمع ديناميكيته, لإيجاد الحلول لمشاكله أولا بأول.

إذا أراد رجال الدين تفسير الشريعة فى ضوء إحتياجات العصر ,فعليهم أن يكونوا على دراية وفهم عميق بإحتياجات العصر .فالطبيب يجب أن يفهم الداء قبل أن يصف الدواء. فقد كان الطهطاوى يرى أن الفلسفة والعلوم الحديثة, كانت موجودة فى العالم الإسلامى إلى وقت قريب. لكنها ذبلت فى عصره. نظرا لإتباع رجال الأزهر سياسة عدم قبول العلوم الحديثة اللازمة للنهوض بالدول. مثل علوم الإجتماع ونظم الحكم والإقتصاد . فالأطباء والمهندسين والإقتصاديين, يجب أن يكون لهم الإحترام الذى يحظى به رجال الدين .

العامة يجب تدريبهم على فهم حقوقهم السياسية. والحكام يجب أن تخاف الرعية. وأن تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم, هى علاقة بين الحقوق والواجبات. الثروة القومية وصلاح الأمة يعتمدان على أخلاقها. وطالما كانت الأخلاق قوية, كانت الأمة عظيمة. والطريق إلى الأخلاق هو التعليم. فالتعليم يجب أن يكون متصلا بمشاكل الوطن. والتعليم الإبتدائى, يجب أن يكون إلزاميا للجميع.

التعليم الثانوى يجب أن يكون رفيع المستوى. المرأة يجب أن تتعلم مثل الرجل. وهو بذلك يكون أول من نادى بتعليم المرأة ومساواتها بالرجل قبل قاسم أمين بعدة عقود. تعليم المرأة ضرورى لثلاثة أسباب: الأول, هو التوافق فى الزواج وتربية الأولاد تربية جيدة. والثانى, لإعدادها للعمل فى الأعمال المناسبة لها إذا دعت الحاجة لذلك. والسبب الثالث, لحمايتها من الحياة الخاوية التى تحياها المرأة الجاهلة وسط باقى النساء الجاهلات.

ويواصل الطهطاوى آرائه فى التعليم فيقول أن التعليم يجب أن يهدف إلى تكوين الشخصية الصالحة عند الفرد. وليس مجرد تجميع معلومات. لذلك يجب أن تهتم المدارس بالرياضة البدنية. ويجب أن تراعى النواحى الصحية فى عدد التلاميذ فى الفصل الواحد .والإشراف الطبى والنظافة وخلافه. كما يجب أن تنمى المدرسة المثل والأخلاق الكريمة فى نفوس الطلبة وتشجع الصداقة المخلصة والشجاعة وحرية إبداء الرأى والعفو عند المقدرة وإحترام الوالدين وكبار السن وما شابه ذلك من قيم نبيلة .وأهم من كل ذلك, الإهتمام بغرس حب الوطن فى نفوس التلاميذ .

حب الوطن هو الدافع الرئيسى لبناء المجتمعات المتحضرة .ونلاحظ أن الطهطاوى فى كتبه, كرر ذكر حب الوطن مرارا وتكرارا. كأنه أراد أن ينبه جيله والأجيال القادمة بأهمية حب الوطن فى بناء المجتمعات الحديثة. وهذا ما رآه فى فرنسا أثناء إقامته فى البعثة التعليمية. فواجبات الفرد نحو وطنه عديدة . منها: الوحدة الوطنية, والإمتثال للقانون, والتضحية بكل ما هو رخيص وغال فى سبيله .

وطنية رفاعة كانت مصرية علمانية صحيحة. لا إسلامية أو عربية .تشمل قدماء المصريين, وأبناء مصر غير المسلمين. وكانت وطنيته تعتبر تقدما وتطورا وحضارة. ترتبط بنظام سياسى علمانى يحفظ الحياة ويصون العدالة والمساواة بين جميع المواطنين. وينمى الإقتصاد ويطور المؤسسات العلمية وفى مقدمتها الجامع الأزهر .لتساهم جميعا فى نشر ثقافة عقلانية تؤدى إلى إزدهار مصر وعظمتها التى كانت لها يوما فى قديم الزمان.

أما حقوق الفرد فهى الحرية. حرية الرأى, وحرية التعبير ,وحرية إختيار الحاكم, وحرية إختيار من يمثلونه فى المجالس النيابية. فالحرية فقط هى التى تخلق الوطنية. ونلاحظ هنا أن ابن خلدون كان يرى أيضا أن الوطنية, وكان يسميها العصبية, هى أساس وحدة وقوة المجتمعات. إلا أن ابن خلدون كان يرى العصبية تعتمد على صلة الرحم والدم, بينما الوطنية التى ينادى بها الطهطاوى, تعتمد على صلة المكان والأرض. ففى كتاب المناهج يقول الطهطاوى: "إن كل ما يربط المؤمن بأخيه المؤمن فى العقيدة, يربط أيضا المصرى بأخيه المصرى فى الوطن. لأن رباط الوطن يأتى قبل رباط الدين. فهناك إلتزام خلقى لكل من يشارك فى نفس الوطن. لكى يعمل على رفعة ومجد هذا الوطن"

لكن ما هى هذه الوطنية التى ينادى بها الطهطاوى؟ ينادى الطهطاوى بالوطنية المصرية التى تشمل كل من يعيش على تراب مصر. مصر بالنسبة له شئ مختلف. يبدأ تاريخها المتصل منذ عصر الفراعنة إلى العصر الحديث. وقد كتب شعرا أثاء إقامته فى باريس يمدح فيه الفراعنة. ولم تكن مصر القديمة مجرد موضوع للفخر والتباهى. لكنها بالنسبة له, كانت جذور عميقة للحضارة والخلق والإزدهار الإجتماعى والإقتصادى. وإذا كان القدماء فى مقدورهم أن يقيموا هذه الحضارة العظيمة بالإعتماد على أنفسهم, فإن مصر الحديثة تستطيع ذلك. لأن الشعب المصرى لم تتغير خصائصه منذ زمن الفراعنة. وسبب تأخر مصر حديثا, يرجع إلى حكم المماليك والأتراك. وهو بذلك يؤيد ما قاله نابليون بونابرت للمصريين أثناء الحملة الفرنسية.

لم يكن الغرب بالنسبة للطهطاوى هو مجموعة من الدول الإستعمارية التى يجب مقاطعتها ومحاربتها وحماية أنفسنا من حضارتها, كما يحمى السليم نفسه من الأمراض المعدية. لكن الغرب كان بالنسبة له هو العلوم الحديثة والثقافة والفكر والأدب والسياسة والإقتصاد الحديث والأسلوب العلمى فى حل المشاكل. ومصر لا بد أن تأخذ بالعلوم الحديثة. لأن العلوم الحديثة التى تنتشر فى أوروبا اليوم, هى علوم كانت فى الأصل إسلامية. وإذا أخذ المسلمون بعلوم الغرب اليوم, فهم يستردون ما كان لهم فى يوم من الأيام. والطريق الوحيد للإستفادة بعلوم الغرب, هو طريق الإحتكاك المباشر. أى طريق البعثات والتجارة والصناعة. وهنا يقول":مخالطة الأغراب, لاسيما إذا كانوا من أولى الألباب. تجلب للأوطان من المنافع العمومية, العجب العجاب "

لكن الطهطاوى يحذرنا من التقليد الأعمى بدون وعى, وإغفالنا لقيمنا وتقاليدنا النبيلة المتوارثة. لأن الحضارة الغربية قد تضع الجانب الأخلاقى فى مرتبة أدنى من الجانب المادى. فمثلا الدستور الفرنسى ينص على مبادئ أساسية للعدالة, لكن هذه المبادئ لا ترقى إلى مبادئ الأخلاق السماوية التى تحض على الإحسان بالوالدين والعطف على الفقير ومساعدة الصغير وإحترام الكبير. وهذا يذكرنا بالقضية التى نشرتها جريدة الديلى نيوز التى تصدر فى نيويورك منذ عدة سنوات. حيث رفع الإبن الأمريكى دعوة لطرد والده ووالدته لعدم سدادهما إيجار الشقة التى يستأجرانها من الإبن. فأمر القاضى بطرد الوالدين من الشقة .وقال فى حيثيات الحكم أنه ينفذ نص القانون, والقانون لا يفهم معنى الرحمة.

لكن تـ حذير الطهطاوى من بعض جوانب الحضارة الغربية, لا يعنى من قريب أو بعيد الرفض الكامل لها. لأن الإنفتاح عل الغرب وتعلم لغاته وحضارته, لا يشكل الخطر الذى يتخوف منه رجال الدين وبعض مفكرى الشرق. وقد تبنى هذه الأفكار فيما بعد ,رجال مثل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد لطفى السيد وطه حسين. إذ كانوا ينادون بالإنفتاح الحضارى على الغرب بفهم ووعى. دون خوف على تقاليدنا وديننا.

المرأة والسلطة في كتابات الطهطاوى

لقد فرض الواقع باستمرار مشاكله وقضاياه على الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر الذي لم يكن يوماً معزولاً عن المستجدات والحوداث في العالم من حولنا فمنذ رائد التحديث والنهضة في الفكر الإسلامي الحديث رفاعة الطهطاوي الذي ناقش مبكراً قضية مهمة جداً وهي حق المرأة في الاشتغال بالسياسة العليا، أو ما يعرف برئاسة الدولة، أو الملك، وتبدو لنا آراؤه في ذلك الوقت المبكر أكثر تقدمية ومرونة من معظم رجال الفكر الإسلامي المعاصرين الذين مازالوا يتعاملون مع المرأة من منطلق، رؤية تراثية تقليدية تنظر للمرأة نظرة مشوهة منقوصة ولا تثق بقدراتها، رؤية تتناقض في جوهرها مع طبيعة الإسلام كدين جاء حديثه عن الرجل والمرأة على السواء إلا في بعض الفروق الذي قصد بها ترتيب الأوضاع في المجتمع من ناحية ومن ناحية أخرى قصد بها صيانة المرأة من أن تكون عرضة للقيل والقال من ذوي النفوس الصغيرة والعقول الضعيفة.

وعلى رغم أن الطهطاوي يقرر أن هذا الحق كما قضت الشريعة المحمدية، وقوانين أغلب الأمم مقصور على الرجال من دون النساء. والنساء بطبعهن لا يتحملن أعباء الحكم لما فطرن عليه من ضعف. لكنه يناقش القضية بعقلية منفتحة

ولا يحجر على الرأي الآخر الذي لا يوافق على هذا الرأي، وينسبه الى بعض السياسيين ممن يرون أن الضعف في النساء ليس مطلقاً، ولكنه أغلبي فيهم ويؤكدون على أحقية المرأة في تولي منصب الحكم ويضرب مثلاً بمجموعة من النساء أصبحن حاكمات وملكات عبر التاريخ ضربن المثل في الحزم والتدبير كأفضل الرجال " فكلهن أحرزن حسن التدبير والإدارة، وأقمن البراهين على لياقة النساء لمنصب السلطنة".

ويستطرد في سرد أخبارهن وكأنه لا يمانع في قبول حكم أمثال هؤلاء النسوة اللائي ضربن المثل في الحزم والحسم في تدبير شؤون الحكم والممالك التي تقلدوها بعزيمة لا تفتر وإرادة لا تلين فيتحدث عن بلقيس ملكة سبأ، والزباء بنت عمر ملكة اشتهرت بالقوة والحزم عند العرب قبل الإسلام، وكيلوباترا ملكة مصر، وشجرة الدر التي حكمت مصر وغيرهن من النساء عبر الأمم. ويبدو أن رفاعة الطهطاوي كانت لديه قناعة شخصية بقدرة المرأة على تولي الحكم، على رغم معارضته لذلك امتثالاً لأمر الشرع الذي نهى من ذلك كما «اقتضت الشريعة المحمدية». وهذا ما يستشف في سرده المطول لأخبارهن، بصورة تظهر إعجابه، وحرصه على معرفة الأجيال التي ستتربى على عمله هذا، خصوصاً من الفتيات اللائي يتعلمن في المدارس، باتخاذ أمثال هؤلاء النساء مثلاً وقدوة.

وإذا كانت هذه القضية الشائكة حتى وقتنا الراهن محل خلاف بين العلماء والفقهاء بين المعارضين لها لتولي منصب الرئاسة، والذين خلصوا إلى أن نهي الرسول عن ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أفلح قوم ولوا أمرهم" (البخاري وأحمد والنسائي والترمذي بإسناد حسن) مرتبط بحدث معين وحادثة خاصة، وبالتالي لا ينسحب على جميع الحالات، ومن ثم لم يجدوا حرجاً في القول بجواز إسناد منصب الحكم للمرأة. خصوصاً في ظل تعدد السلطات وعدم تركيزها في يد شخص واحد فلم يعد الحاكم هو من يحتكر السلطة مطلقاً ولكن السلطة في الأنظمة الحديثة موزعة بين الحاكم والسلطة التنفيذية ممثلة في الحكومة والسلطة التشريعية ممثلة في البرلمان وغيرها.

ويلاحظ أنه بعد ان ينتهي من الحديث بإعجاب عن هذه النماذج من النساء اللائي تقلدن السلطة، وسلكن مسالك الشجعان، إلا انهن سيئات العواقب، وقل أن خلت إحداهن في بعض الأفعال من نقصان. فإذا كان حالهن كذلك، فكيف يجوز وراثتهن للخلافة والسلطنة، ومن تقلد منهن السلطنة وأفلح فيها فلم يكمل له الفلاح، وإذا كمل فهو من النادر الذي لا حكم له، فحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» صادق بالمضمون، مؤيد بالتجارب، وتولية شجرة الدر، التي لم تسبق في الإسلام سلطنة لغيرها، كانت من قبيل الضرورة التي تبيح المحظور.

لكنه بعد ذلك مباشرة يعقب بقول لأحد الحكماء من أنصار التقبيح والتحسين العقليين – وعلى ما يبدو أنه أحد اصدقائه من الأجانب، لأنه يصف الفرنسيين بأنهم من أنصار التقبيح والتحسين العقليين – ممن لا يتبعون النص الشرعي، بأن النساء من قديم الأزل في مصر رئيسات منازلهن، يسسن أمور المنزل من دون مشاركة الرجل، من تدبير شؤون البيت إلى تربية الأبناء، على رغم أن العقل والطبع لا يوافقان على ذلك لما فيها من ضعف، فيكتسب الأولاد منهن قلة الشهامة، وعدم التعود على الشجاعة. لكن العقل والطبع لا يمنعان المرأة من تولي الحكم والرئاسة، لأن ما فيهن من ضعف، هو الذي يكسبهن الرفق والرحمة والحلم وكل ما يليق برتبة الحكم والرئاسة من خصائص تقوم على الرأفة والشفقة بالرعية، وهي أمور لصيقة بطبع المرأة، بعكس الرجل الذي يتصف بالشدة والعنف والجبروت وغيرها من ميزات الخلق الجافية التي هي لصيقة بالرجل، وهي صفات لا تليق بالملوك في تأليف قلوب الرعية، ومن ثم فلا موجب لحرمان النساء إذن من توليها نظام الحكم والرئاسة، خصوصاً وقد أثبت كثير منهن حكمة ونجاحاً في حكمها وتميزن بمآثر وأحسنت في حكمها.

ثم يعقب الطهطاوي على هذا الرأي بقوله قد فهمت رده، ويظل يطرح الحجة الشرعية ويثبت عكسها بحكم الواقع، فمثلاً يتحدث عن سعة أبواب الشريعة والسياسة التي تخص الملوك وكيف أنها لا تطيقها عقول النساء، لتعذر مخالطتهن بصفة مستمرة، للموظفين المتصلين بشؤون الحكم من المدنيين والعسكريين.

غير أنه يؤكد مرة أخرى، على أن النساء لا يعدمن القدرة على ممارسة هذه المهام السلطانية، فإن السيدة عائشة – على سبيل المثال – استجمعت من الأمور الشرعية والسياسية كفاءة الخلافة. ويروي ما يؤكد مثل هذا الكلام عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكأن الطهطاوي في صراع نفسي حول أحقية المرأة في الحكم والخلافة، فيرى أن مؤهلاتها من حيث هي إنسان لا تمنع، لكن المحاذير الشرعية تحول من دون ذلك، فيبسط وجهتي النظر بحياد وتجرد، من دون تعصب ولا تسفيه لوجهة نظر.

ويبدو أنه كان يتناقش حول هذا الأمر، مع أحد من أصدقائه الغربيين، الذي لا يرى مانعاً من تقلد المرأة لهذا المنصب – رئاسة الدولة - ويستمع لوجهة نظره، ثم يقرر رأي الشرع في المنع وعلة ذلك. وحقيقة الأمر أن موقف رجال الفكر والدعوة المعاصرين مازال متوافقاً مع رؤية الطهطاوي، من حيث منع المرأة من منصب الحكم، فسعيد رمضان البوطي يؤكد على "اننا إذا استثنينا رئاسة الدولة التي كان يعبر عنها بالخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن سائر الرتب والأنشطة السياسية الأخرى، تعد في الشريعة الإسلامية، مجالات متسعة لكل من الرجل والمرأة". ويستدل بحديث الرسول «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» على المنع وهو ما استدل به جمهور علماء الشريعة على حرمة إسناد مهام الخلافة أو رياسة الدولة إلى المرأة أياً كانت، ولا يجوز أن تعقد لها البيعة شرعاً.

والحكمة من وراء ذلك، أن قسماً كبيراً من مهام الخليفة أو من يحل محله دينية محضة، ولسيت مجرد سياسة، ومنها جمع الناس لصلاة الجمعة وخطبتها، والمرأة غير مكلفة بذلك ولا حتى بالحضور كما لا يجوز أن توكل من يقوم بذلك طبقاً للقاعدة الشرعية لا تصح الوكالة إلا عمن يستوي مع الوكيل في المطالبة بذلك الحكم وشرائط صحته وانعقاده. ومن مهام الخليفة إعلان الحرب وقيادة الجيش في القتال، والمرأة غير مكلفة بذلك إلا في حال النفير العام عند مداهمة العدو دار الإسلام، وغير ذلك من القضايا التي تقتضي عدم الزج بالمرأة في هذه المواقف المحرجة، التي لا ضرورة لها.

وبصرف النظر عن وجود وجهة نظر أخرى اكثر تقدماً من هذا الرأي – الذي يحكر على المرأة حقها في أن تكون حاكماً – لا ترى بأساً من تولي المرأة شئون الحكم وترى في حديث الرسول أنه مرتبط بسياق خاص وظرف معين فسيظل حديث رفاعة الطهطاوي حول هذا الموضوع سابقاً عصره بمراحل وسابقاً لكثير من رجال عصرنا الذين ينظرون الى المرأة بدونية على اعتبار انها أقل من الرجل قدرة وذكاء وحسن تأتٍ للأمور، وهذا غير صحيح ولا يتفق مع الشرع الذي يؤكد على المساواة ولا الواقع الذي يؤكد عكس ذلك.

المراجع والمصادر

- محمد محمد حسين . الإسلام والحضارة الغربية . " ص (17 - 18).
  بدون . تاريخ الفكر المصرى الحديث . مكتبة مدبولى . **1978** . القاهرة .
- عزت قرني ، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، سلسلة عالم المعرفة، ع ٣٠. ٣٥. -الكويت، ١٩٨٠ ، ص.
- جـ مال الدين الشيال: رفاعة رافع الطهطاوي – دار المعارف – القاهرة – **1970**م .
- حسين فوزي النجار: رفاعة الطهطاوي، رائد فكر وإمام نهضة – الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة، بدون تاريخ .
- محمد عمارة – رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث – دار المستقبل العربي – القاهرة – **1984**م .
- مجموعة من الباحثين – ندوة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي – كلية الألسن – القاهرة **1984**م .
- عمر الدسوقي – في الأدب الحديث – دار الفكر العربي – القاهرة – **1966**م.

فهرس